البلاغة العربيّة والبلاغة الحجاجيّة (الإقناعيّة) .. توافقٌ أم افتراق ؟

أ.م.د هناء عبد الرضا رحيم الربيعيّ– جمهوريّة العراق/ جامعة البصرة

كليّة التربية للعلوم الإنسانيّة/ قسم اللغة العربيّة

إنّ مفهوم (البلاغة) قد يتغيّر في أيّة حضارة تبعاً للتطوّرات المجتمعيّة والثقافيّة والفكريّة التي أحاطت به؛ ولهذا فهو قد يتباين ويختلف من حضارة إلى أخرى، والبحث في مفهوم البلاغة الجديدة (الحجاجيّة الإقناعيّة) في دراساتنا العربيّة المعاصرة يعطي صورة واضحة لحركة التغيير والتطوير التي يدعو إليها المثقّفون والمعنيّون بهذا الشأن، وبما يتلاءم مع التطوّر السريع لمقوّمات العالم الثقافيّ، ولكنّها دعوة تحتاج إلى إعادة نظر لما انتجه الدارسون حولها، ومتابعة تطبيقهم لأسسها على البلاغة العربيّة التراثيّة، والاطّلاع على آليّة استلهامهم للتجربة الغربيّة المنطلقة من أصول فلسفيّة قديمة، فمحاولة نقل التجربة بكلّ جذورها، وإقحام فكرة (البلاغة الجديدة) في دراساتنا اللغويّة– في بعض المباحث– أمر مشوب بالحذر، إذ من الطبيعي أن يتغيّر مفهوم (البلاغة) تبعاً للتطوّرات الحادثة، ولكن أن يتمّ استنساخ التجربة بكلّ جوانبها وأن يتمّ اخضاع البلاغة العربيّة التراثيّة لهذه التجربة هنا تكمن المشكلة، ولأسباب كثيرة، أهمّها: أنّ خصوصيّة كلّ لغة توجبها ظروف متعدّدة تسهم في تكوينها واستقرارها، وعلى الرغم من أنّ محاولة تطوير علوم اللغة والنهضة بها حقّ مشروع لكلّ متخصّص في هذا المجال إلا أنّ استبعاد هذه الخصوصيّة، وعدم مراعاة ظروف النشأة للعلوم يشكّل خللاً في عمليّة التطوير ذاتها.

وتندرج محاولة تطبيق تجارب الغرب على تراث البلاغة العربيّة ضمن محاولات التطوير تلك، فهي قد أعطت ثماراً، بعضها كانت إيجابيّة والأخرى سلبيّة، وهذان الأمران أفرزا لنا مجموعة توافقات وتقاطعات في ميادين مختلفة من هذا العلم، وردت في مؤلّفات الدارسين أنفسهم، بعضهم أدركها بفطنته ونبّه إليها، في حين غابت عن البعض الآخر ولم ينتبه إليها أصلاً، من أمثلة: تحديد مفهوم المصطلح المستعمل للبلاغة، وظروف النشأة والمهاد، والهدف المتوخّى ومجال التأثير والتطبيق، والمكوّنات البنائيّة لهذه البلاغة، والآليّات المتّبعة في المعالجة، ومفاهيم المصطلحات المندرجة تحتها، فضلاً عن تباينات أخرى يستعرضها البحث.

– مفهوم البلاغة الإقناعيّة:

لو بحثنا في القواميس الإنجليزيّة والفرنسيّة عن معنى كلمة (إقناع/Persuasion) لوجدنا أنّها تضمّنت معاني متعدّدة، فهي قد دلّت في القواميس الإنجليزيّة على: القدرة والحثّ على الإقناع، والاقتناع، والرأي أو المعتقد، والنوع أو الجنس. أمّا معناها في القواميس الفرنسيّة، فهي: القدرة على الإقناع، والإفحام، واليقين، وبذلك تشترك هاتان الترجمتان للفظة بأنّها قد تعني: القدرة أو الحثّ على الإقناع، وقد تعني اليقين والاعتقاد القاطع، فتتقارب بذلك– في معنى اليقين– مع كلمة (Convaincre) التي تدلّ

على هذا المعنى، إذ مع وجود الإقناع والاقتناع يتحقّق اليقين والاعتقاد، وقد حلّت موسوعة لالاند الفلسفيّة هذا الإشكال بالقول إنّ هنالك تقابلاً قد وقع بين اللفظتين: (Convaincre) و(Persuasion) وليس ترادفاً، من حيث إنّ اللفظة الأولى تعني الإقناع من خلال الحجج للوصول إلى الحقيقة، واللفظة الثانية تعني الحمل على الإقناع من خلال الخيال والانفعال، ليس في سبيل الوصول إلى الحقيقة فقط، بل في سبيل الخطأ أحياناً، وهو فهم يتقارب مع معنى الإقناع اصطلاحاً مثلما سنلاحظ لاحقاً.

وتتّفق المعاجم العربيّة في أغلبها- القديمة والحديثة- على أنّ مادّة (ق ن ع) لها معنيان لغويّان، هما: السؤال والتذلّل، والرضى، والجامع بين المعنيين هو الرضى، إذ أنّ السؤال والتذلّل يوصل في نتيجته إلى الرضى والقناعة من خلال تحقيق هدف السؤال، وهذا المعنى هو الأدخل في الدلالة اللغويّة لكلمة (إقناع) عند أهل اللغة.

أمّا المعنى الاصطلاحيّ لكلمة (إقناع) ضمن مفهوم البلاغة فهو أمر يحتاج إلى استقراء تاريخيّ لتبدلاته وتغيّراته عبر الزمن للوصول إلى ما استقرّت عليه اللفظة، وسنرجيء الحديث عن هذا المسار (الغربيّ والعربيّ) إلى ما سيأتي لاحقاً، فليس هدفنا – هنا- الاستدلال بالتعريفات الكثيرة للإقناع أو مثلها للبلاغة، وإنّما هدفنا هو الوقوف على ما يربط البلاغة بالاقناع الذي يمثّل بدوره أساساً مهمّاً من أسس الحجاج، فكلّ خطاب حجاجيّ يسعى إلى تحقيق الإقناع.

لقد وردت تعريفات كثيرة للإقناع ولكن ما يوضح ماهيّته أو يكشف عن حقيقة معناه يمكن اختصاره بأقوال محدّدة، من أمثلة:

- تعريف توماس شايدل (Thomas Scheidel) للإقناع بأنّه: محاولة واعية للتأثير في السلوك.

- تعريف هنريش بليث (Heinrich F. Plett) له بأنّه: قصد المتحدّث إلى إحداث تغيير في الموقف الفكريّ أو العاطفيّ عند المتلقّي.

- رؤية كلّ من هوارد مارتين (Howard Martin) وكينيث أندرسين(Kenneth Andersen) أنّ كلّ اتصال هدفه الإقناع، وذلك أنّه يبحث في ردّ فعل على أفكار القائم بالإتصال.

ويماثل هذه التعريفات تعريفات أخرى وردت في كتب الدارسين المعاصرين من العرب وهي لا تختلف من ناحية الفكرة العامّة التي طرحها مماثلوهم من الدارسين الغربيّين، ومن خلال هذه التعريفات جميعاً نتوصّل إلى أنّ الإقناع هو: عمليّة عقليّة أساسها الإتّصال بين طرفين لغرض إحداث التأثير في موقف فكريّ أو عاطفيّ للمتلقّيّ، فهو ((**جهد اتّصالي لسانيّ بالدرجة الأولى، مؤسّس على قصد، ومخطط له سلفاً وفق استراتيجيّة معينة، ووفق أهداف معيّنة، من أجل استمالة المتلقيّ وإذعانه؛ لتعديل سلوكيّاته ومواقفه الشخصيّة في ظروف مقاميّة معيّنة**))، فإن كان مقام الكلام مبنيّ على قصد الإغراء والإغواء كان الهدف من الإقناع متعة شخصيّة لا غير (إمتاع)، وإن كان المقام قائماً على استراتيجيّة إقناعيّة عقليّة بحتة سيطرت الحجج المنطقيّة لتوجيه فكر المتلقين، فمقام الكلام هو الذي يحدّد الهدف الذي سيسير إليه الإقناع عبر آليّاته.

في مقابل (الإقناع) في البلاغة الغربيّة نتوقّف قليلاً عند مفهومها في (البلاغة) العربيّة، إذ من الحتميّ جدّاً محاولة إيجاد مدى التقارب بين البلاغتين؛ لأنّ الإقناع- بوصفه مفهوماً عقليّاً- نشأ في أحضان الخطابة الغربيّة وارتبط بالبلاغة المنبثقة عنها، فضلاً عن أنّ البحث بجملته يتحدّث عن البلاغة الإقناعيّة بجزئيها: (الغربيّة، والعربيّة).

ترتبط البلاغة العربيّة في تعريفاتها اللغويّة التي نُقلت عن القدماء بالإبلاغ أي الإيصال، والوصول إلى الغاية، وفي معناها الاصطلاحيّ ارتبطت بقصد التأثير في المتلقيّ، فالبلاغة ((**من قولهم بلغت الغاية إذا انتهيت إليها، وبلّغتها غيري، ومبلغ الشيء منتهاه، والمبالغة في الشيء الانتهاء إلى غايته، فسُميت بلاغة لأنّها تنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه**)).

وقد أخذت أشكال التأثير في المتلقي عبر البلاغة صوراً متعدّدة من غرضيّ الإقناع والإمتاع، من أمثلة ما يأتي:

أولاً: الإقناع، ويتعلّق بالجانب الفكريّ القائم على الحجّة العقليّة، ويتحقّق هذا الجانب من خلال صور متعدّدة عند القدماء، من أمثلة:

- **الإفهام:** يقول الجاحظ: ((**مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنّما هو الفهم والإفهام، فبأيّ شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضوع**)) ، وقال أيضاً: ((**البلاغة أن لا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق، ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع**)) ، فالبلاغة هي عمليّة تواصل مبنيّة على طرفين، أحدهما يؤثر في الآخر لغرض تحقيق الإفهام.

- **البصر بالحجّة:** البلاغة: هي ((**إصابة المعنى، والقصد إلى الحجّة**))، وهي أيضاً: ((**البصر بالحجّة، والمعرفة بمواقع الفرصة، ومن البصر بالحجّة أن يدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها إذا كان طريق الإفصاح وعراً، وكانت الكناية أحصر نفعاً**))، فالبصر بالمواقع التي تحدث تأثيراً أكبر هو صورة من صور البلاغة ولهذا يكون اللجوء إلى الكناية بدلاً من الإفصاح في هذه الحالة أمراً واجباً كي تتحقّق الفائدة والمنفعة المرجوّة منها.

- **مناسبة المقام للمقال،** ويسمّى أيضاً مطابقة الكلام لمقتضى الحال، يقول الجاحظ: ((**ينبغي للمتكلّم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكلّ طبقة من ذلك كلاماً ولكلّ حالة من ذلك مقاماً**))، وقال السكاكيّ: ((**لا يخفى عليك أنّ مقامات الكلام متفاوتة، فمقام الشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الذمّ**))، فيكون بذلك ((**مدار حسن الكلام وقبحه على انطباق تركيبه على مقتضى الحال وعلى لا انطباقه**)).

ثانياً: الامتاع، ويعتمد التحسين في العرض والتزيين له، من أمثلة:

- حسن المعرض: ((**البلاغة ما تبلغ به قلب السامع فتمكّنه في نفسه كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن، وإنّما جعلنا حسن المعرض وقبول الصورة شرطاً في البلاغة؛ لأنّ الكلام إذا كانت عبارته رثّة ومعرضه خلقاً لم يسمّ بليغاً وإن كان مفهوم المعنى مكشوف المغزى**)).

- التحسين والتقبيح: ((**أعلى رتب البلاغة أن يحتجّ للمذموم حتى يخرجه في معرض المحمود، وللمحمود حتى يصير في صورة المذموم**)) ، وقيل أيضاً: ((**اللسان الذي يروق الألسنة فإظهار ما غمض من الحقّ، وتصوير الحقّ في صورة الباطل**)).

وبموجب هذه التعريفات والأقوال عن البلاغة عند القدماء فإنّ البلاغة تلتقي في وظائفها جميعاً مع الإقناع في أنّ كليهما عمليّة تواصليّة بين طرفين (باثّ ومتلقيّ)، تهدف الى التأثير في المتلقيّ، تقوم على الحجّة والدليل، قد يكون غرضها الإمتاع أو الإقناع، وفي الحالتين فإنّ الفكر العقليّ لا يغيب عنهما ولو للحظة فهي تعبير قصديّ بامتياز، وهذا المفهوم خاصّ بالبلاغة الإقناعيّة.

وعلى الرغم من هذه التوافقات الفكريّة في المفهوم- بين البلاغة العربيّة والبلاغة الإقناعيّة- إلا أنّنا لا نحملها على التطابق التامّ في الجزئيّات فالدراسات العربيّة المعاصرة تشير إلى وجود توافقات في الغالب ولكنّها قد تشير إلى وجود افتراقات ضمناً ومن دون وعي أحياناً من قبل الدارسين، وهذا الأمر يعطي الحقّ بالتوقّف لحظة قبل الشروع بتطبيق تجربة لغويّة متكاملة ذات خصائص تكوينيّة معيّنة ومحدّدة على تجربة أخرى تختلف في كلّ ذاك أو في بعضه حتّى.

- إشكاليّة المصطلح (البلاغة- الخطابة):

لعلّ أهمّ إشكال إصطلاحيّ يعترض الدارس العربيّ المتوجّه لدراسة (البلاغة الجديدة) هو ترجمة مصطلح (rhétorique) وتحديد ما يقابله في اللغة العربيّة من: البلاغة فقط، أو الخطابة فقط، أو الدمج بينهما، ثم إنّ مفهوم دلالة البلاغة فيه، ما هو؟ هل هو دالّ على بلاغة أدبيّة إمتاعيّة، أو على بلاغة إقناعية إفهاميّة ؟، وللإجابة عن هذه الأسئلة المشكلة ينبغي الرجوع إلى موقف الدارسين المعاصرين، وبيان طريقة تعاملهم مع ترجمة المصطلح، ومع التدقيق سنجد أنّهم قد انقسموا أمام هذا المصطلح أقساماً متعدّدة، فهناك مَنْ ترجمه إلى (البلاغة) فقط، وهناك مَنْ ترجمه إلى (الخطابة) فقط، وهناك مَنْ زاوج بين (البلاغة) و(الخطابة)، فإذا كان تحديد الترجمة بإحدى الكلمتين (البلاغة أو الخطابة) يعدّ أمراً وارداً وممكناً، فإنّ أمر الجمع بينهما يعدّ أمراً لافتاً للانتباه ويحتاج إلى وقفة، فما هو التبرير الذي وضعه أصحاب هذا التوجّه لتفسير سبب الجمع بينهما ؟

ممّن لجأ إلى الجمع بين (البلاغة- الخطابة) محمد الوليّ، وعائشة جرير في مقدّمة ترجمتهما لكتاب: (البلاغة، مدخل لدراسة الصور البيانيّة) لفرانسوا مورو، حيث كتبا: ((**ينبغي، قبل الانتقال إلى تأطير الصور البيانيّة ضمن الأدوات التعبيريّة الفنيّة، أن نلقي الضوء على مصير صرح البلاغة- الخطابة، إذ أنّها قد لقيت حتفها في مرحلة معيّنة من التأريخ... لقد ماتت البلاغة حينما عوّض ذوق تصنيف المحسّنات البلاغيّة المعنى الفلسفيّ الذي كان يبعث الحياة في إمبراطوريّة البلاغة المترامية**

الأطراف، ويحافظ على الأجزاء مجتمعة بربطها بالأوركانون أو الفلسفة الأولى))، وهذا الكلام يوحي أنّ تركيب (البلاغة-الخطابة) لم يكن تركيباً صافياً عبر المراحل الزمنيّة السابقة، فالبلاغة وارتباطها بالمحسّنات والصور من جهة، والخطابة وارتباطها بالفلسفة من جهة أخرى كانا يتنافسان معاً للظهور عبر مراحل التأريخ المختلفة، فعندما يخفت بريق أحدهما في مرحلة ما يعود ليظهر بريق الآخر في مرحلة أخرى وهكذا، فكأنّ التركيب (البلاغة- الخطابة) الذي يدعو إليه مترجما الكتاب هو التركيب الذي تتساوى فيه الجهتان (الإمتاع، والإقناع) وبما تنطويان عليه من مفاهيم التحسين اللفظيّ والتصوير البيانيّ والفلسفة.

ويوضّح محمّد الوليّ المقصود من جمع (البلاغة مع الخطابة) بشكل أكثر وضوحاً حينما يربط ترجمة المصطلح بمضمون الدلالة، إذ يقول: ((**نفضّل ترجمة (خطابة) حينما يكون المقصود بلاغة الحجاج، ونفضّل ترجمة (بلاغة) حينما يكون المقصود بلاغة المحسّنات**)) ، وبذلك يكون جمعه بين (البلاغة – الخطابة) مقصوداً منه الدلالة على بلاغة المحسّنات مجموعة مع الفلسفة، فللبلاغة أجزاء متعدّدة ينبغي جمعها مع بعضها بعضاً وليس اختزالها في جزء واحد، يقول محمد الولي: ((**إنّ واحداً من الأسباب الداعية إلى موت البلاغة يكمن في اختزالها إلى جزء واحد من أجزائها. وبهذا فقدت الرابط الذي يقرنها بالفلسفة عبر الجدل**)) ، وبموجب ذلك تكون (البلاغة الإقناعيّة الحجاجيّة) هي البلاغة التي تقرن سمة التحسين في الكلام مع الفلسفة، فلا غنى لها عن المنطق والفلسفة لغرض تحقيق الإقناع، أمّا (البلاغة) العاديّة فهي بلاغة المحسّنات والصور من غير فلسفة، وما يقابل الخطابة ويساويها هي (البلاغة الإقناعيّة).

ويلجأ حافظ إسماعيلي علوي إلى الأمر نفسه من المزاوجة بين المصطلحين؛ لأنّه بالنسبة له الحلّ الوحيد الذي يمكن من خلاله التخلّص من الإشكال المصطلحيّ في ترجمة مصطلح (rhétorique)، إذ يقول: ((**كانت غايتنا الأولى هي حسم مشكل مصطلحيّ: بلاغة وخطاب، انطلاقاً من ترجمة كلمة ريطوريا إلى العربيّة من جهة، والنظر إلى ما تعنيه في الدرس الحديث، وهذا ما لم نستطع إليه سبيلاً، فوجدنا أنفسنا أمام تردّد كبير: هل نعتمد البلاغة أم نعتمد الخطابة ؟ وبما أنّ ترجيح أحد المصطلحين على الآخر يجب أن ينبني على اعتبارات دقيقة لا يستطيع لها هذا التقديم فقد حاولنا الاحتفاظ بالمصطلحين**)).

وقد حاول بعض الدارسين تقديم مقترحات واجتهادات لترجمة المصطلح، فمحمد العمريّ يقترح ترجمة الريطوريقيّة الأرسطيّة بلفظة (خطابيّة) في مقابل لفظة (شعريّة) التي ركّزت على مجال التخييل، وهو قد استعمل أيضاً لفظة (الخطاب الإقناعيّ) مقابل ترجمة المصطلح.

أمّا موقفه من (البلاغة) فهو يرى أنّها مفهوم تأريخيّ يتغيّر بحسب الثقافات والحقب، إذ يقول: ((**وإذا كان بوسع مُنتج الخطاب البلاغيّ في سياق تأريخيّ معيّن أن ينظر من زاوية خاصّة فيغلّب مكوّناً على مكوّن، ويعتبره أساس البلاغة، أو سرّها -كما عبّر القدماء- فإنّ مؤرخها، والراصد لنظريّتها العامّة مطالب باستيعاب كلّ الرؤى، وفهم سرّ انتسابها إلى البلاغة، إي أنّه مطالب بكشف الجوهر المشترك الكامن بين كلّ التوجّهات التي تحمل هذا الاسم، وليس من حقّه أن يزكّي أحدها أو يقصي الآخر إلا في إطار عمل نقديّ لبناء نسق جديد، أي حين ينتقل من التأريخ إلى التنظير، وقد يحدث**

ذلك في إطار المؤلف الواحد))، فقد تكون (بلاغة) فلسفيّة إقناعيّة ضمن فترة زمنيّة معيّنة، وقد تكون (بلاغة) تعتمد المحسّنات والصور، أو قد تكون (بلاغة) خطابيّة فقط ضمن فترات زمانيّة أخرى، فالذي يحدّد مفهوم البلاغة هو السياق التأريخيّ والثقافة الاجتماعيّة التي عاشت فيها، فالبلاغة في كلّ الأحوال موجودة ولكنّ صورها أو جزئيّاتها تتعدّد فقد يبرز بعضها على حساب الآخر بموجب المحيط التأريخيّ (الثقافيّ والفكريّ والسياسيّ وغيرها).

ويُرجع العمريّ أسباب اضطراب مفهوم (البلاغة) إلى كونها ملتقى لعلوم مختلفة لكلّ منها علاقة بالخطاب وحاجة إلى استنطاقه وكشف جانب من أسراره، فهي تغذّت من النحو والمنطق ومن علوم اللسان المختلفة؛ لذا يكون أمراً طبيعيّاً لو أنّها برّزت عِلْماً على آخر أو جزئيّة على أخرى بحسب الوضع الذي يستدعي ظهوره في مرحلة تأريخيّة ما.

واضطراب الترجمة لمصطلح (rhétorique) عند الدارسين المعاصرين انسحب أيضاً إلى ترجمة اللاحقة في كتاب بيرلمان وتيتيكاه (La nouvelle rhétorique.Traité de I'argumentation)، (مصنّف في الحجاج)، إذ ترجم اللاحقة بعضهم بـ(الخطابة الجديدة)، في حين ترجمها آخرون بـ(البلاغة الجديدة)، أو قاموا بدمج المصطلحين معاً فترجموه بـ (خطابة- بلاغة)، فالذين ذهبوا إلى ترجمة اللاحقة بـ(الخطابة الجديدة) أمثال: عبد الله صولة في كتابه (الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبيّة)، ومحمد الوليّ في مقاله: (السبيل إلى البلاغة الباتوسيّة الأرسطيّة)، وعلي الشبعان في مقاله: (الحجاج وقضاياه من خلال مؤلّف روث آموسي (الحجاج في الخطاب))، وأحمد يوسف في مقاله: (البلاغة السوفسطائيّة وفاتحة الحجاج)، وعبد العالي قادا في كتابه (بلاغة الإقناع، دراسة نظريّة وتطبيقيّة)، فهم قد نظروا إلى أنّ بيرلمان وضع الخطابة في نسق فلسفيّ أرسطيّ وأنّه بموجب ذلك وضع نظريّة متكاملة استقلّت بالخطابة البرهانيّة عمّا سواها، يقول محمد الولي: ((**هذه الخطابة تعيش اليوم حالة من التشظّي، فقد استقلّ شاييم بيرلمان بالخطابة البرهانيّة، القريبة الصلة بالجدل، وضع بها نظريّة كاملة في كتابه: مصنّف في الحجاج: الخطابة الجديدة**)).

ويقول أحمد يوسف: ((**ستجد خطابة بيرلمان الجديدة ضالّتها في النسق الفلسفيّ الأرسطيّ، حيث لا تخفى العلاقة الوطيدة بين الحجاج والمنطق الذي لا ينفصل عن الواقع، ويظلّ يلازمه خلافاً لبعض الاعتقاد الشائع من عدم التمييز بين المنطق الصوري ومنطق أرسطو. وهذا المنحى في التفكير والاستدلال كان أشدّ وطأة على البلاغة السوفسطائيّة في تقويض ركائزها؛ لأنّها كانت مرتبطة أشدّ ما يكون الارتباط بالواقع**)).

وللدكتور عبد العزيز قادا وجهة نظر مقبولة في ترجمة اللاحقة بـ (الخطابة الجديدة) يتابعها بجديّة في الطرح واستعمال الأدلّة التي تسند رأيه، فهو يرى أنّ ترجمة العنوان الفرعيّ لكتاب بيرلمان لا تكون منطقية إلا بترجمتها بـ(الخطابة الجديدة) وليس بترجمتها بـ(البلاغة الجديدة) لعدم وجود مرجعيّة بلاغيّة تسندها، وريطوريقيّة بيرلمان تتسع للمنطق بأنواعه وبالتالي فهي ليست خطابة أرسطو والجدل، ولا هي بالبلاغة والبيان بل هي كل ذلك معاً، وعلى ذلك لا يمكن أن نختزل ريطوريقا أرسطو في البلاغة أو في الخطابة إلا إذا وسّعنا الخطابة لتتّسع للمنطقين: الصوري والمائع، أو أضفنا للبلاغة – على الأقلّ- آليّات المنطق المائع.

في مقابل ذلك نجد أن بعض الدارسين لجأ إلى ترجمة لاحقة كتاب بيرلمان وتيتيكاه بـ(البلاغة الجديدة)، أمثال: صلاح فضل في كتابه: (بلاغة الخطاب وعلم النصّ)، ومحمد سالم محمد الأمين الطلبة في كتابه: (الحجاج في البلاغة المعاصرة، بحث في بلاغة النقد للنصوص الحجاجيّة)، ومحمد الولي في مقاليه: (مدخل إلى الحجاج: أفلاطون وأرسطو وشاييم بيرلمان)، و(الحجاج، مدخل نظريّ تاريخيّ)، ومحمد العمريّ في مقاله: (الحجاج مبحث بلاغيّ، فما البلاغة ؟)، وعبد الله صولة في مقاله: (البلاغة العربيّة في ضوء البلاغة الجديدة (أو الحجاج))، ورضوان الرقبي في مقاله: (الاستدلال الحجاجيّ التداوليّ وآليّات اشتغاله)، وأحمد يوسف في مقاله: (السيميائيّات والحجاج، مقاربة في المرتكزات الابستيميّة)، وعبد العزيز لحويدق في مقاله: (الأسس النظريّة لبناء شبكات قرائيّة للنصوص الحجاجيّة)، وجميعهم ينظرون إلى أنّ (مصنّف في الحجاج) كان يركّز على عمليّة توسيع مضمون البلاغة القديمة وإعادة بعثها من جديد بمضامين إضافيّة، يقول محمد الوليّ: ((**إضافة بيرلمان: توسيع البلاغة إلى الحدود البعيدة، وذلك عبر دمج الجدل، والانسانيّات عامّة والتحاور اليوميّ العمليّ، في هذا النموذج الموحّد الذي دعاه: البلاغة الجديدة**))، فالبلاغة العاديّة المرتبطة بالمحسّنات والصور البلاغيّة ما عادت تنفع أو ما عادت تحقّق الفائدة في الخطاب إن لم تقترن بالجدل والفلسفة كي تؤدي دورها وأثرها في إقناع المتلقين؛ وهو ما انتبه إليه بيرلمان في مصنّفه وحاول بعث البلاغة من جديد في صورة جديدة ونجح في ذلك.

ويرى محمد العمريّ أنّ البلاغة نشطت وانبعثت من جديد في العصر الحديث من خلال مصنّف بيرلمان وتيتكاه بعد أن جمدت لفترة من الزمن، إذ يقول: ((**وقد برهنت هذه العودة النشطة للبلاغة على أنّها تجيب عن أسئلة لا يمكن للمداخل الأخرى أن تجيب عنها. إنّ البلاغة يمكن أن تغيّر جلدها ولكنّها لا تختفي إلا لتظهر في لباس جديد**)).

ويتفق عبد الله صولة مع العمريّ في أنّ البلاغة انبعثت من جديد في أثناء حديثه عن مصنّف بيرلمان وتيتيكاه، إذ يقول: ((**وقولهما جديدة يقتضي وجود بلاغة قديمة، وهذه البلاغة القديمة هي بلاغة أرسطو (أو خطابة أرسطو) من ناحية، والبلاغة الأوربيّة السائدة في القرن التاسع عشر وما قبله من ناحية أخرى**)) ، فنقطة ارتكاز البلاغة الجديدة هي العقل والكلام، إذ يُمثل العقل بـ(إذعان العقول)، والكلام بـ(تقنيّات الخطاب)، وهذا الأمر يعني أنّ بلاغة بيرلمان (البلاغة الجديدة) – من وجهة نظر عبد الله صولة– تعتمد اللوغوس بالمعنى المزدوج لكلمة (Logos) في اليونانيّة، من: العقل والكلام.

وما نراه أنّ الغالبيّة العظمى من الدارسين ترجموا لاحقة كتاب بيرلمان بـ(البلاغة الجديدة)، هذا إذا ما أضفنا إلى المجموع الدارسين الذين خلطوا بين المصطلحين (البلاغة) و(الخطابة) ولكنّهم اتّفقوا على أنّها (جديدة)، أمثال: محمد الولي، وعبد الله صولة، وأحمد يوسف فيبدو لنا أنّه كان هناك شبه إجماع أو شبه ميل شديد نحو (البلاغة) وليس (الخطابة)، وذلك من خلال إعطاء البلاغة امتيازات خاصّة بالخطابة لتستطيع تحقيق أثرها بفاعليّة وإقناع المقابل.

ورغب بعض الدارسين في التخلّص من هذه الاشكاليّة في ترجمة لاحقة كتاب بيرلمان مثلما فعلوا في ترجمة مصطلح (rhétorique) فجمعوا المصطلحين معاً، أمثال: حافظ إسماعيل علوي، إذ يقول: ((**إنّ صفة الجديد التي تحدّث عنها**

المؤلّفان– بيرلمان وتيتيكا– تعني ضمنياً أنّ هناك خطابة (بلاغة) قديمة. فإذا كانت الخطابة (البلاغة) الجديدة مطابقة للحجاج في منظورهما، فإنّ فهم مرامي هذه التسمية لا يمكن أن يتأتّى إلا بالوقوف وقفة متأنية على المقصود بالخطابة (البلاغة) القديمة التي حاولا من خلال مصنّفهما إخراجها من دائرة الحجاج)).

أمّا إذا تفهّمنا رغبة البعض في تقريب المصطلح إلى الجمهور العريض من الناس، والتخلّي عمّا كان يزعجهم وينفّرهم من الخطابة في الماضي سواء في الثقافة الغربيّة أم في الثقافة العربيّة الإسلاميّة فإنّنا نضع مصطلح (rhétorique) ضمن قائمة المصطلحات التي يصعب ترجمتها إلى العربيّة من دون إثارة مشاكل لعدم وجود مقابل لفظيّ يحصل حوله إجماع، وقد تنبّه قدماء العرب من التراجمة إلى هذه المسألة ولذلك لم يضعوا ترجمة أمام هذا المصطلح وإنّما أبقوا عليه كما هو فأسموه بـ(ريطوريّة) أو (ريطوريقا) فنقلوا المعنى حرفيّاً، وبذلك لن تكون الثقافة العربيّة لا (الخطابة الجديدة) ولا (البلاغة الجديدة) بل كليهما، فإذا اعتمدنا آراء بيرلمان في سلسلة مقالاته التوضيحيّة كانت (الخطابة الجديدة) لأخذها طريق الأدب مع التخلّص من التهمة السفسطائيّة القديمة وتزويق الكلام الفارغ، وإذا اعتمدنا التقاليد العربيّة كانت (البلاغة الجديدة) لاتساعها للمحاججة باعتبارها الجزء المنسيّ من خطابة أرسطو. أمّا إذا نظرنا آنيّاً لا زمانيّاً فيما يفترض أن تكون (rhétorique) في الثقافات الغربيّة فإنّه يفترض ترجمتها باعتماد سياقها الغربيّ بـ(البلاغة الجديدة)، في حين أنّنا لو اعتمدنا التقاليد الأرسطيّة في الثقافة العربيّة فيفترض أن ننقلها بـ(الخطابة الجديدة) باعتبارها الخطابة التي كان يراها أرسطو بالفعل لا كما أوّلت من قبل شرّاحه، وهكذا لا يمكننا التخلّص من ازداوجيّة متأصّلة في الزمان والمكان ويظلّ لكلّ دارس أسبابه وحججه في الاختيار، ولكلّ قارىء مقاييسه في الرفض والقبول.

– مسارات وظيفة الإقناع في البلاغة الغربيّة:

تمثّل بلاغة الإقناع أو الحجاج ((**منطلق البلاغة الغربيّة وسمتها المميّزة، حيث انبثقت من رحم الفلسفة والجدل، وغطّت مناحي الحياة في المجتمع اليونانيّ، ومنحت القول سلطة وقوّة**))، فضلاً عن أنّها قد شكّلت مصدراً لانبعاث البلاغة الحديثة بعد عصور طويلة انحصر فيها الاهتمام بالصورة والحلية والمحسّنات الاسلوبيّة، حتّى أضحت البلاغة (مختزلة) بحسب تعبير جيرار جنيث الشهيرة، بل و(ميّتة) بتعبير رولان بارت، وسنحاول هنا الوقوف على أهمّ ملامح البلاغة الأرسطيّة– مثلما يُطلق عليها– من خلال مساراتها الإقناعيّة عبر التأريخ، كونها الأساس الذي قامت عليه أغلبيّة النظريّات البلاغيّة واللغويّة التي نشأت فيما بعد، ولا سيّما النظريّات الحجاجيّة.

ارتبطت نشأة البلاغة الإقناعيّة الأغريقيّة بقضايا الملكيّة التي اقيمت بعد سقوط الطاغيتين جيلون(elon) وهييرون (Hieron)، إثر انتفاضة ديمقراطيّة، خلال القرن الخامس قبل الميلاد، وقد تطلّبت تلك القضايا امتلاك المدّعين القدرة على إقناع لجان التحكيم الشعبيّة التي تمّ تعيينها للفصل في الدعاوى الناتجة عن تهجير أهل صقليّة ومصادرة ممتلكاتهم وتمليكها للمرتزقة، فاحتاج الرجوع إلى الوضع السابق فترة من النزاعات القضائيّة لتحديد حقوق الملكيّة للمواطنين؛ إذ كانت غير واضحة تماماً، فتشكّلت محاكم من نمط جديد كانت مكوّنة من هيئآت شعبيّة كبرى من المحلّفين، وهؤلاء يلزم إقناعهم التمتع بالفصاحة والبلاغة الكافية، فالبلاغة بما هي إقناع كانت على صلة بالاحتكام إلى المؤسّسات القضائيّة التي كانت تضطلع بالبتّ والفصل بين المتنازعين، وهذه الفصاحة والبلاغة

- بطبيعة الحال- لا يمكن أن تتأتّى من دون تعليم ودراسة وتدريب، فانبرى المتقدّمون في هذا الشأن إلى محاولة توفير ما يناسب وظيفة التعليم لهذا الجانب المهمّ من اللغة.

يقول الدكتور جابر عصفور إنّ ((**البلاغة نشأت ملازمة للخطابة، ولم تفارق ما ارتبط بها من مخايلة الإقناع، وما تؤديه هذه المخايلة من وظيفة آيدلوجيّة تتصل بإيقاع التصديق في النفوس**))؛ لذلك لم يكن غريباً أن تؤرخ الحضارة الغربيّة لميلاد بلاغتها بأولى المحاكمات التي إحتضنتها (صقليّة) حول الملكيّة؛ فكان المهاد الذي تشكّلت فيه بلاغة الإقناع فضاء خلافيّاً وديمقراطيّاً في الوقت نفسه، خلافيّاً لأنّه مجال للمنازعة والجدال والخصومة، وديمقراطيّاً لأنّه يقوم على أساس الاحتكام للمؤسّسات القضائيّة.

وقد شكّلت مجهودات السوفسطائيّين اللبنات الأولى في هذا الفنّ، وكان أوّل أساتذة هذه المادّة الجديدة امباذقليس الأغرجنتي (d'agrigente Empédocle)، وكوراكس (Corax)(ق٥ قبل الميلاد) تلميذه الذي يعدّ أوّل من أخذ أجرة مقابل دروسه، فوضع كوراكس مصنّفاً تحدّث فيه عن قواعد الترتيب، وتناول مسألة الاحتمال التي توسّع فيها فيما بعد تلميذه تسياس (Tisias) (ق٥ قبل الميلاد) لتصبح موضوعات هذه المادّة أثينيّة في نشوئها، يميّزها استعمال الصوت الإنسانيّ باعتباره وسيلة التواصل والإقناع. وقد انبثقت هذه القدرة في تحقيق الغاية التعليميّة عند السوفسطائيّين من قدرتهم الخاصّة على النزال الكلاميّ والمساءلة؛ ممّا مكّنهم من فنّ القول، وسهّل حيازتهم لآليّات الإقناع، فوضعوا قواعد وأصول تستنبط من خلالها قواعد الخطابة وقوانينها، وأصبحت الحاجة ماسّة إلى نخبة تثقّف الرعيّة وتدرّبهم على حسن استعمال الكلام في المجالس السياسيّة والقضائيّة، وهذه المهمة انيطت بالسوفسطائيّ ريتور (Rhetor) الذي كان يتلقّى مقابلاً ماديّاً نظير تلقينه صناعة حسن صرف الكلام وفنّ الحوار، والقدرة على تعبئة النفوس وتحريك العواطف واستمالة الوجدان لإحداث التأثير وتحقيق الإقناع المنشود.

إنّ الأفق الإقناعيّ الذي ميّز بلاغة السوفسطائيّين- وهم محترفو الذكاء بحسب تسميتهم أو الحكماء- لا يمكن فصله عن انشغالاتهم السياسيّة والتعليميّة، فقد كانوا معنيّين بتنشئة المواطن، وتشكيل الرأي العام ضمن صراع المواقع والسلطة داخل المجتمع، فاعتبروا القول الخطابيّ بما هو قول يفوق المعارف البشريّة الأخرى بما يمتلكه من قوّة وفعاليّة؛ إذ هو أعلى سلطة لتحقيق الاعتقاد وبناء المعرفة، ووصل الإنسان والمدنيّة بالخير والنافع.

وجاءت بعد ذلك أعنف الردود على السفسطائيّين، على وجه الخصوص، من سقراط (ت٣٩٩ ق.م) وأشياعه الفلاسفة الذين استنكروا أسلوبهم، ورأوا أنّ بلاغتهم تمثّل تهديداً خطيراً على اللوغوس ومستقبل الديمقراطية في أثينا كلّها، فسعوا سعياً حثيثاً لتخليص الخطابة من غوايات التضليل والتشكيك- مثلما يرون-، وأحّد وجوه التضليل هذه منطق البلاغة القائم على التأثير في نفوس المتلقّين وقناعاتهم ولو على حساب الحقيقة، فحاول سقراط تأسيس منطق بديل يخلّص الخطابة ممّا علق بها من مغالطة ومناورة وتلاعب بعواطف الجمهور وعقله، وتشذيب نظرية العلم منها، بإقامتها على المعيار العقليّ الخالص.

لقد توخّت منظورات الفلاسفة النظر إلى البلاغة من خلال نفعيّتها أو عدمه، ولعلّه استناداً إلى هذه الغاية، بل ولعدم تحقّقها – بالنسبة لهم– أقصاها أفلاطون (ت٣٧٥ ق.م) من صرحه الفلسفيّ، فقيامها على مبدأ التناقض المثبّت للطرح ونقيضه في الوقت نفسه ينافي الحقيقة الفلسفيّة المبحوث عنها– عندهم–، ثم إنّ البلاغة موجودة في عالم الجوهر، ويتمّ التوصّل إليها بالاستدلال المعقول وليس بالكلام البليغ؛ ولذلك صنّفها ضمن الخطابات المضلّلة للعقول، وحصرها– بالتالي– في إثارة أهواء المخاطبين وتحريك انفعالاتهم والإيقاع بهم في فخّ الإقناع، والبديل الذي يضعه أفلاطون هو القبول بشكل بلاغيّ قائم على الحوار المتبادل بين طرفين ندّين ومختّصين في المجال المطروح للمناقشة، وحيث لا يتم الاحتكام إلا إلى المعرفة فمن المؤكد أن يتحقّق الإقناع من دون التأثر بأي نوع من أنواع السلطة القهريّة.

إنّ فعاليّة القول ترتبط بحسب (أفلاطون) بقدرة منتجه على تنظيم خطابه ضمن بنية متماسكة ومتكاملة، وهو لا يقبل بالانتقالات الجزافيّة بين أجزاء الموضوع، ومن ثم يرفع الانتظام في القول إلى مقام الضرورة البلاغيّة، وهو يشترط في الأقوال الوحدة الموضوعيّة، وهي وحدة طالما نشدها في الفكر كما في الوجود.

واقتفى أرسطو (ت٣٢٣ ق.م) أثر أستاذه نفسه وأسّس له نمط خطابيّ جديد خاصّ به ضمّنه في كتابه (فنّ الخطابة) الذي يعدّ من أهمّ المصنّفات الأغريقيّة التي سيستمرّ حضورها في مؤلّفات الدارسين حتى العصر الحديث، و((**لقد فصل أرسطو منذ البداية بين الشعريّة والخطابيّة مؤكّداً ارتباط الأولى بالمحاكاة، بينما تدرس الثانية السبل المؤدية إلى الإقناع، إقناع في مجال المحتمل والمسائل الخلافيّة القابلة للنقاش، ففي صنعة الخطابة ننتقل من حجة إلى حجة، فيما يتطوّر الخطاب في صنعة الشعر من صورة إلى أخرى، وهذا التفريق بين الصناعتين (الشعر والخطابة) هو جوهر البلاغة الأرسطيّة ودليل صفائها وانتسابها إليه**))، فلقد أدرك أرسطو أنّ للبلاغة خصوصيّتها التي ينبغي أن تؤخذ بعين الاعتبار لا أن تُهمل – مثلما فعل شيخه–، فالبلاغة ليست علميّة أو يقينيّة وإنّما هي تنبني على الاحتمال والتوقّع في داخل المجتمع الإنسانيّ وعلاقاته. ولعلّه إدراك مدعوم بعاملين على الأقلّ:

– منطق الاحتمال لمنطقين متضادّين بالنسبة لمجمل القضايا مثار الخلاف بين المتخاطبين، وهنا تظهر وظيفة البلاغة في قدرتها على إيجاد التأثير المناسب لكلّ حالة من الحالات، فتكون الوسيلة المناسبة لتوحيد المجتمع.

– تصوّره للمعرفة القائم على التعدّد، فالشيء المرئيّ ليس بالضرورة أن يكون عينه، وإنّما قد يكون شيئاً آخر يمثّله، وعلى هذا فالاختلاف المتأصّل في الهويّات الكائنة والممكنة مدعاة إلى إقامة جدل يوصل إلى إدراك المختلف بينها، وإيجاد ما قد يؤالفها.

وبذا تكون البلاغة الأرسطيّة احتماليّة وتعدّديّة، تبني عمليّة الإقناع على عقلنة الخطاب من دون إلغاء مبدأ التأثير بوساطة الأهواء؛ لذلك شملت مجمل أنماط الخطابات: البرهانيّ، والإستشاريّ، والقانونيّ، المحيلة على القسمة الثلاثيّة المعروفة للأنواع الخطابيّة، وأعطت الأولويّة للغة أو اللوغوس.

ومن ثمّ انتقل مركز الجذب- في البلاغة- هذا الذي احتلته اللغة مع أرسطو إلى مرحلة أخرى مع شيشرون (Ciceron)(ت ٤٣ ق.م) أحّد أهمّ منظريّ البلاغة الرومانيّة ليكون عمادها عنصر (الخطيب)، باعتباره منظومة جماليّة نموذجيّة شاملة للجانبين: اللغويّ والأخلاقيّ، قابلة للتأثير في المناحي السياسيّة والقانونيّة؛ ذلك أنّ الفنّ الخطابيّ عنده وعند كانتليان (Quintilien)(ت١٠٠ ب.م) من بعده قام على قدرة الخطيب البيانيّة من جهة، وعلى سيرته الأخلاقيّة التي يسعى إلى تلبّسها اجتماعيّاً بوصفه ممثلاً لقيم يُفترض احتذاؤها والسير على منوالها من جهة أخرى؛ ولذلك عُدّ الخطيب رمزاً للفضيلة، ومثالاً لصنعة الخطابة، متمكّناً من القدرة الإقناعيّة المطلوبة؛ وبذلك انتقلت البلاغة من محوريّة اللغة عند اليونان، إلى محوريّة الخطيب عند الرومان ولعلّ الفرق واضح بين التصوّرين، فإذا كانت البلاغة عند أرسطو نتاج فكر حرّ لا يُلزم الجمهور بتلقّي خطابات وقبولها، إلا بقدر تلاؤمها واعتقاداته وأفكاره، استناداً إلى بنية مزدوجة تقبل الطرح والطرح المضادّ، فإنّ البلاغة الرومانيّة ظلّت رهينة المؤسسة الخطابيّة الخاضعة لتراتبات اجتماعيّة وسياسيّة، مستجيبة لمواضعات موجهة تحكم علاقة الإرسال بالتلقّي، ولا شكّ في أنّ البلاغتين صادرتان عن مفهومين مختلفين للإنسان والفكر والتاريخ ميّزا كلّ مرحلة بمنطقها الخاصّ.

ثم أخذت البلاغة بعد ذلك- في المرحلة الحديثة- توجهين بارزين، نحا أولهما منحى جدليّاً، متأثراً بمنهج رينيه ديكارت(Rene Descartes) (ت١٦٥٠م) الذي اعتمد قواعد منهجيّة ذات خطوات تحليليّة، مبدؤها المسلّمة ومنتهاها التركيب، مروراً بالتفكيك والبرهنة، فاعتُمدت هذه المنهجيّة في البلاغة وصيغت على أساسها أجزاء النسق البلاغيّ المصطلح عليها تباعاً بايجاد مصادر الأدلّة، وترتيب أقسام القول، والأسلوب، ثمّ الذاكرة فالإلقاء، وهذه الأفكار التي دخلت البلاغة كانت منجذبة إلى التحليل الرياضيّ، يحرّكها هاجس بحث جوانب التضليل والحدس والحقيقة في الإقناع، وتحدوها الرغبة في التوصّل إلى نتائج تتّسم بالضبط والصرامة العلميّين، وهذا المنعطف الذي شهدته البلاغة ناتج عن إعادة مساءلة المجتمع لمسلّماته، في علاقتها بالواقع والمتخيّل، ووليد ميل واضح نحو عقلنة أدواره ومجالاته.

أمّا المنحى الثاني فكان متوجّهاً إلى مرادفتها بالأسلوب حتّى صارت تُعرف به من خلال الإسهامات الفرنسيّة، فأضحت اللغة المجازيّة على أثره، موضوع دراسة كلّ من مجازات دومارسيه (Du Marsais)(١٧٣٠م)، وصور الخطاب لدى فونتانيه (Fontanier)(١٨٢٠م)، استقصاء منهما لأدواتها وصورها، ممّا سيكون له الأثر الواضح في قراءات بلاغيّة جديدة وعلى رأسها (الأسلوبيّة).

لقد أدّى كلا التوجهين إلى وقف البلاغة على عقلانيّة أو انزياح أقصيين، وبالتالي إلى حجبها حتى منتصف القرن العشرين، حيث ستنبعث في السنوات الخمسين اللاحقة من رماد تراكم المقاربات اللغويّة، وعلى رأسها الإسهامات البلجيكيّة لكلّ من بيرلمان (perelman)، وجروفيمو(Groupemu)، وهي الأعمال التي كان لها أثرها في تجدّد البلاغة، ولو على حساب شطرها إلى شطرين- مرّة أخرى- باعتبارها مساراً حجاجيّاً معقولاً من ناحية، وإجراءاً أسلوبيّاً من ناحية ثانية.

لقد استطاعت البلاغة أن تنفض عنها غبار السنين وتنبعث من جديد في العصر الحديث بفضل الانقلابات الفكريّة والثقافيّة والسياسيّة والاقتصاديّة التي شهدها العصر، إذ تولّدت بسبب من ذلك خطابات وخطابات مضادّة نابعة من تيارات متصارعة أذكتها وسائل الإتصال؛ لارتباطها أساساً بمقاصد التأثير والإقناع، فاستدعت الحاجة محاولة استرجاع البعد المفقود للتجاذب بين المجال الأدبيّ (حيث يهيمن التخييل)، والمجال الفلسفيّ المنطقيّ واللسانيّ (حيث يهيمن التداول).

ولقد ارتبطت هذه الحركات التجديديّة للبلاغة بالعودة إلى أرسطو وجعل متنه منطلقاً لها، فبيرلمان- مثلاً- يصرّح: ((**إن العمل الطويل النفس الذي خضت فيه مع أولبريشت تيتيكاه هو الذي قادنا إلى نتائج غير متوقّعة إطلاقاً، نتائج كانت بالنسبة إلينا كشفا لأمر كان محجوباً عنّا، ألا وهو أنّه لا يوجد منطق للقيم، وأنّ ما نبحث عنه كان قد عولج من طرف مبحث ضارب في القدم، منسيّ حاليّاً ومستهجن هو البلاغة، أي: فنّ الإقناع والاقتناع**)).

لقد أعاد بيرلمان (اللغة) في شقّها الجدليّ إلى قطب تصوّره، وجعلها محطّ مشروع تأمليّ مفصّل يعتبر الحجاج خطاباً، ذا استدلال منظّم، باحث عن القيم، متوجه إلى (مجتمع كونيّ)، ثم إنّه في شقّه الآخر يحرص على استجلاب مؤازرة الآخرين التي لا تتمّ إلا داخل فضاء تأمّلي، يراعي الاعتبارات الذاتيّة التي عمل النموذج العقلانيّ على تلافيها؛ ولذلك صارت نظريّته قائمة على تصوّر الحجاج بوصفه فعلاً متصلاً بسياق نفسيّ واجتماعيّ وثقافيّ، وباعتباره تصنيفات من التقنيات الحجاجيّة المجرّدة في الآن ذاته، فيكون- تبعاً لذلك- قد أقام نظريّته على حدود متحرّكة بين البلاغة والجدل، فالبلاغة الحجاجيّة عند بيرلمان لم تكن حصراً على الصور المجازيّة، ولا برهنة ديكارتيّة صارمة بقدر ما هي عقلانيّة خارج الأنظمة الصوريّة للعلم، واحتماليّة من دون تضليل، هدفها دراسة التقنيّات الخطابيّة التي من شأنها إحداث أو زيادة موافقة الآخرين على الطروحات المقدّمة إليهم بقصد قبولها.

أمّا تولمين (Toulmin) فيذهب غير المذهب البيرلمانيّ لأنّ حافزه البحث عن منطق طبيعيّ ينسخ المنطق الصوريّ، فبلاغته تستضلّ بضلّ المنطق وإن كانت تأبى التقيّد به، ومع ذلك فإنّ جميع الجهود الحديثة المبذولة كانت تحاول بناء مفهوم عام للبلاغة يستوعب المفهومين السائدين: المفهوم الأرسطيّ الذي ينبني على الإقناع باعتماد الخطاب، والمفهوم الأدبيّ الذي يجعل الخطاب هدفاً في حدّ ذاته فيبحث في صور الأسلوب؛ وبذلك تتولّد بلاغة جديدة رائدها التأثير والتفعيل، بلاغة ينصهر فيها الشعريّ والتداوليّ الخطابيّ.

بينما اقترحت (جماعة مو) مقاربة بنيويّة للصور البيانيّة اسمتها (بلاغة عامّة)(١٩٧٠م)، ومحورت مشروعها حول نوعيّة اللغة الأدبيّة، وجعلتها موضوع دراسة كاملة، ومع أنّها عملت في اتجاه إعادة الصلة بالتقليد البلاغيّ الفرنسيّ لدومارسيه وفونتانيه فقد ظلّت من أكثر البلاغات التي جدّدت البحث في الأسلوب بدمجه داخل إشكالات اللسانيّات الحديثة.

لقد جرت البلاغة وفق تطوراتها مجاري متعدّدة، ولا شكّ في أنّ مفهومها سواء في الفترتين التأسيسيتين الأغريقيّة والرومانيّة، أم أبّان عصر النهضة، وصولاً إلى انبعاثها في القرن العشرين بقي مرتبطاً بالمرحلة التأريخيّة التي صدر عنها، وبتصوراتها للمعرفة والعالم؛

لذلك تفرّقت في مسالك متعدّدة، ولبست حللاً شتّى، تراوحت بين العقلانيّة النسبيّة، والبرهنة الصارمة، والجماليّة الأدبيّة، والاحتماليّة التعدديّة التي وسمته بسمات الضلال (أفلاطون)، وذاتيّة القيم (سيسرون وكانتليان)، وفنّ القول (بلاغة دو مارسيه- فونتانييه وجماعة مو)، والمنطق شبه الصوريّ (تولمين)، والاستدلال المعقول (بيرلمان) ، أفرزت كلّ سمة أشكالاً من المخاطبين: الكائن الإشكاليّ المتعدّد عند أرسطو، والانسان النموذجيّ ذو القيم العليا لدى الرومان، والمستمع الكونيّ عند بيرلمان.

وإذا كان من البديهيّ أن تكون لكلّ مرحلة بلاغتها فإنّه من المؤكّد أنّه لا وجود للبلاغة بمعزل عن صورة معيّنة للإنسان وللتاريخ ولنوع المسافات بين الكلمات والأشياء، بين المنزاح من الكلام ومعقوله، ومن ثمّة ضرورة إعادة مساءلة هذه العلاقات، بل إنّ إحياء البلاغة رهين بايجاد نموذج تفكير وحلول آخر محلّه.

إنّ اختلاف هذه التصوّرات التي أفرزتها تلك التنظيرات على تباعدها الزمنيّ وتباين منطلقاتها ومقاصدها تمحورت حول الجانبين: الإمتاعيّ والإقناعيّ للبلاغة، الإمتاع باعتباره: إجراءات أسلوبيّة، واستراتيجات استهوائيّة تخاطب في المقام الأوّل أحاسيس الجمهور، وتسعى إلى تحريك عواطفه، مستهدفة التأثير الفاعل للدفع إلى تبنّي مواقف معضدة للخطاب المتوجه به إليها، وبالتالي قبول قضيّته عن حماسة لا رويّة، في مقابل الإقناع وجوهر الأطروحة والأطروحة المضادّة ذات التوجّه المنبنيّ على مسار استدلاليّ منظّم، المحتمل للمعقول والمقبول من الرأي المخالف.

- البلاغة العربيّة وعلاقتها بالاقناع:

((**تعتبر البلاغة العربيّة بناء متكاملاً ونصّاً لا يمكن فهم أوّله إلا بعد قراءة آخر سطر منه**))، وقد أسهمت عدّة عوامل على نشأة التأليف فيها وتطوّر موضوعاتها، لعلّ من أهمّها البحوث التي اتّصلت بالقرآن الكريم لغة وإعجازاً، وتركيباً وبناءً، فضلاً عن دراسات النصّ الشعريّ من خلال ما أثاره هذا النصّ من خصومة نقديّة بين أنصار القديم وأنصار الجديد، وتبعاً لذلك فقد اختلفت ظروف نشأة البلاغة عند العرب إختلافاً جذريّاً عن نشأتها عند الغرب، ففي حين نشأت عندهم نشأة فلسفيّة منطقيّة، نجد البلاغة العربيّة قد نشأت في أحضان الشعر، الذي يمتاز بصورته وشكله المخالف للكلام النثريّ، وحتّى في تعامل الدارسين مع القرآن الكريم ذهب أكثرهم إلى أنّ فضله يرجع إلى شكله وهيأته، وتصاريف الكلام فيه، وقليلون مَنْ ذهبوا إلى أنّ عظمته مستقاة من الحجج الواردة فيه أو من السياسة التي ينتهجها في الوصف.

وكان للمؤثّرات الاجنبيّة -أيضاً- دور لا يستهان به في تطور الدرس البلاغيّ وإثرائه وفتحه على كثير من المجالات والحقول المجاورة له في الثقافات: الفارسيّة والهنديّة واليونانيّة التي كان حضورها فاعلاً قويّاً في البلاغة العربيّة، ولا سيّما الثقافة اليونانيّة من خلال القراءات التي تناولت كتب أرسطو بالترجمة والاختصار والشرح، فالتأثّر ثابت بالأدلّة والقرائن اللفظيّة والمعنويّة بشهادة نقّادنا القدامى أنفسهم .

ولو نظرنا إلى البلاغة العربيّة نظرة فاحصة عبر تأريخها التطوّري لوجدنا أنّه قد تنازعها تيّاران بارزان: تيّار الإمتاع المرتبط بسؤال الغرابة والانزياح والبديع، وتيّار الإقناع المرتبط بسؤال المناسبة المقاميّة التداوليّة، ويعدّ الجاحظ (ت٢٥٥هـ) هو المؤسس للتيّار الثاني، والواضع لخصائصه، فضلاً عن أنّه يعدّ أوّل مفكر عربيّ وضع نظريّة متكاملة للكلام، وهو المظهر العلميّ لوجود اللغة المجرّدة، الذي يُنجز بالضرورة في سياق خاصّ يجب أنْ تُراعى فيه بالإضافة إلى الناحية اللغويّة جملة من العوامل كالسامع والمقام وظروف المقال، وكلّ ما يقوم بين هذه العناصر (غير اللغوية) من روابط، وتحتلّ الوظيفة التي يعبّر عنها بـ (الغاية ومدار الأمر) حجر الزاوية في هذا البناء لانها مولد اللحمة والهدف الذي تسعى هذه الأطراف إلى تحقيقه من الإقناع.

و(الكلام) – في نظر الجاحظ– لا يمكن تمييزه عن (البلاغة)، فهو في نظره يضطلع في حياة الفرد بوظيفتين أساسيّتين، هما:

– الوظيفة الخطابيّة (الحجاجيّة الإقناعيّة)، وما يتّصل بها من إلقاء وإقناع واحتجاج ومنازعة ومناظرة، وأساسها الفصاحة، وإحكام الحجّة، ومعرفة أحوال المخاطبين، ومستويات تقبّلهم، واختيار المقال المناسب للمقام، وأحوال الخطيب، وكفاءته اللغويّة، وهيئته، وصفاته الخلقيّة، وما يحسن عليه وما يقبح.

– الوظيفة الإفهاميّة (الفهم والإفهام)، وأساسها عناصر المقام وخصائصه، فتحقيق التواصل لا يتمّ إلا من وجه الإفهام والتفهيم أو البيان والتبيين.

لقد كانت أسس مؤلّفات الجاحظ ومنطلقاتها هو الإنتماء العقديّ، إذ كان منخرطاً في نحلة (المعتزلة) الذين يرون أنّ اللغة والبلاغة هما سلاح المتناظرين والمجادلين، الذين يتوخّون نصرة مذهبهم والإقناع به، فكان لهذا البعد المذهبيّ أثره في ربط البلاغة بالوظيفة الإقناعيّة، ولعلّ اهتمامه بالخطبة يدعم إقراره بالبعد الإقناعيّ للقول، وبقدرته على التأثير في المتلقّي.

وتمثّل البلاغة عند الجاحظ وسيلة للتأثير في المستمعين واستمالتهم وإقناعهم بالرأي، فبلاغة القول تكمن في قدرته على تحويل حياد المتلقّي أو معارضته إلى تجاوب، وباستعماله كلّ ما تُستمال به القلوب وتُثنى به الأعناق. وتشديد الجاحظ على الإفهام لا يعني تقليله من القيمة الأدبيّة للخطاب، فهو يصرّح بأنّه ليس كلّ من أفهمك حاجته فهو محكوم بالبيان، وإنّما يكون بإفهامك الكلام على مجاري العرب الفصحاء، ومن هنا جاء اهتمامه بتخيّر الألفاظ، واعتدال الدلالة، والمشاكلة في المعنى، والسلامة من العيّ والحبسة وضيق الصدر، والقدرة على الإبلاغ، والبصر بالحجّة.

إذاً البيان– في تصوّر الجاحظ– يعني الفهم والافهام بالوسائل اللغويّة وغير اللغويّة، فعلى ((**قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة وحسن الاختصار ودقّة المدخل، يكون إظهار المعنى، وكلّما كانت الدلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبين وأنور كان أنفع وأنجح**)) ، فالوظيفة الأساسيّة للبيان هي تحقيق الاستمالة والإقناع. وقد ربط الجاحظ تحقّق هذه الوظيفة بمراعاة المقام الخطابيّ، إذ يقول: ((**ينبغي للمتكلّم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار**

الحالات، فيجعل لكلّ طبقة من ذلك كلاماً ولكلّ حالة من ذلك مقاماً))، فهو يثبّت هنا أنّ العلاقة بين المتكلّم والسامع قائمة على مراعاة المقام والحال، فهي شرط أساس لحدوث التواصل بين الطرفين.

لقد أقام الجاحظ مادّته البلاغيّة على الربط بين المقام والمقال ممّا أدّى إلى بروز مفهوم النسبيّة في تحديد بلاغة النصّ، فالقول ((**لا يقنع إذا لم يكن موجّهاً، أي مكيّفاً بحسب الحاجات الخاصّة التي تقتضيها فئات المخاطبين، فالوضعيّات تختلف، والمراتب تتباين، والأفهام تتفاوت، لذلك يتوجّب على المتكلّم أن يوائم بين طبقات القول وطبقات أحوال المستمعين؛ لأنّ مدار الأمر على إفهام كلّ قوم بقدر طاقاتهم، والحمل عليهم على أقدار منازلهم**))، وهذا الدفاع عن مقام الكلام يعكس حرصاً على وظيفة الإقناع وغايتها.

ونلحظ حضور البلاغة الإقناعيّة في كتابات الجاحظ من خلال عدّة محاور اعتنى بها، مثل عنايته باللفظ وتخيّره ليكون لفظاً بلاغيّاً يؤدي وظيفته الإقناعيّة على أكمل وجه، فيكون كريماً ومتخيّراً وسليماً من الفضول، وبريئاً من التعقيد لتتعلّق به النفوس، وتتّصل به الأذهان، وتلتحم به العقول، وترتاح إليه القلوب، وأن يكون جامعاً بين التوسّط والاعتدال فلا يكون سوقيّاً وحشيّاً ولا مبالغاً في تهذيبه، وأن يكون اللفظ مشاكلاً للمعنى ليحقّق القصد والمنفعة، وبذلك يكون اللفظ عنده جامعاً بين الوظيفة التزيينيّة والوظيفة التداولية التأثيريّة، حتّى يتّصل بالأذهان ويؤثّر في القلوب ويصبح وسيلة لتحقيق القصد من الخطاب.

وعلى الرغم من الجهد الذي بذله الجاحظ في الجمع بين رافدين كبيرين في دراسة الكلام، هما الرافد الخطابيّ والرافد الشعريّ إلا أنّه لم ينل اهتمام اللاحقين إلا من جهة ما فيه من التعريفات البلاغيّة، ومقاييس ووجوه في المعنى الضيّق المقتصر على باب العبارة، ومجال المقاييس المتعلّقة ببلاغة النصّ من جهة ما فيه من حلية وزينة وشكل.

واذا ما استثنينا قراءة ابن وهب (ت بعد ٣٣٥ هـ) لمشروع الجاحظ التي ماتت في المهد تقريباً بسبب انفتاحه على الفكر اليونانيّ، وتوسّعه في التفريعات المنطقيّة فإنّنا نجد أنّ البلاغة ارتبطت فيما بعد بالجانب الشعريّ وركّزت عليه من خلال منشأ البديع الذي أسّسه ابن المعتز (٢٩٦هـ) في الثلث الأخير من القرن الثالث الهجريّ، وظهرت بعده الكثير من المصنّفات التي احتفت إحتفاء خاصّاً ببلاغة المحسّنات دون بلاغة الخطابة التي حدّد الجاحظ أهمّ دعائمها، ومع مطلع القرن الرابع الهجريّ غدت البلاغة مرتبطة أساساً بالوجوه والصور وأساليب أداء المعنى وأنماط البديع.

ويرى الدكتور حمادي صمود أنّ انحسار البلاغة الخطابيّة على حساب المحسّنات يعود إلى عوامل متعدّدة، منها:

– العامل الثقافيّ، ويتمثّل في هيمنة الشعر على باقي أصناف القول في الثقافة العربيّة قبل نزول القرآن.

– العامل الدينيّ، ويتمثّل في بحث الإعجاز القرآنيّ، فقد برع العرب في الشعر فكان الإعجاز في الخطاب مناط أساليب القول لا مناهج الأدلّة.

– العامل السياسيّ، ويتمثّل في حسم الخلافات بحدّ السيف، فترنّحت السلطة الغالبة في منطقة الإقصاء وبسط النفوذ فترتّب على ذلك انحسار مدى الاختلاف، وتقلّصت بذلك إمكانات القول.

وعلى الرغم من ذلك فإنّ الوظيفة الإقناعيّة للبلاغة العربيّة لم تنحسر نهائيّاً من الدرس البلاغيّ العربيّ، ولكنّها توارت خلف وظيفة الإمتاع التي أصبحت مركز هذا الدرس وخصيصته، وإلا فالبلاغة العربيّة اهتمّت بالبعد التداوليّ في مفهومها للخطاب، واعتنت بمناسبة المقال للمقام، واستحضرت المخاطب في تحديدها للنصّ البليغ، ولا ينبغي أن نغفل المحاولات الرائدة التي تناولت البلاغة باعتبارها فنّاً للتعبير والإقناع في الآن ذاته، خاصّة بعد الجهود التي بذلها الفلاسفة العرب في قراءتهم لمتون أرسطو في الشعر والخطابة، وتمييزهم للخصوصيّة الشعريّة (التخييل) والخصوصيّة الخطابيّة (الإقناع) وما بينهما من تداخل، وإن لم يتمّ استثمار هذه الجهود بالشكل المطلوب.

ويرى محمد العمري أنّ المتتبّع للبلاغة في تاريخ النقد الأدبيّ سيجد بلاغتين: إحداهما بلاغة نثريّة تداوليّة بيانيّة خطابيّة، والثانية بلاغة شعريّة بديعيّة، فقد ارتبط كلّ من (المعاني والبيان) بنظريّة المعنى التي ولدت في أحضان نظريّة الإعجاز القرآنيّ، والذي هو نصّ مقدّس ومنزّه عن شبهة الشعر، رغب المنظّرون عن مقاربته إعجازيّاً ببلاغة منبثقة من الخطاب الشعريّ، وفي الواقع فإنّ مسار البلاغة لم يتغيّر حتّى بظهور علوم القرآن الكريم، فقد كانت البحوث الإعجازيّة مبنية في حقيقتها على تقويم النصوص والحكم عليها باعتبار القرآن نصّاً أدبيّاً بليغاً متفرّداً، وشغل جلّ الدارسين لمسألة الإعجاز بالبحث في بلاغة القرآن من خلال الشعر العربيّ، فلم يولوا كبير عناية للحجج والأدلّة التي بيّنها القرآن، والسياسة التي انتهجها في ترتيب الحجج لتتظافر مع الشكل فيحقّق النصّ قصده الإقناعيّ([1])، لكنّهم ((**بنوا له بلاغة غير شعريّة، إنّها بلاغة ملاءمة المعاني لمقتضى الحال والمقام، بلاغة ترضي النصّ الخطابيّ النثريّ أكثر ممّا تنصف النصّ الشعريّ...، فالمصدران الأساسيّان لهذا المفهوم للبلاغة هما مصدران يهتمان إمّا بالنصّ القرآنيّ أو بالنصّ النثريّ الشفويّ وشروط تحقّقه شفويّاً، سواء تعلّقت بجهاز نطق الخطيب أو هيئته أو بالألفاظ وخفّتها على اللسان والسمع. فالتياران معا يغيّبان الشعر في استراتيجتهما العامّة، ويغيّبان مكوّناً من مكوّناته الأساسيّة المميزة له في ممارستهما**)).

وعلى الرغم من توجّه البلاغة نحو الأساليب البديعيّة وتركيزها على وظيفة الإمتاع إلا أنّها قد عرفت ضمن الفكر العربيّ الإسلاميّ في فترات مختلفة فنوناً من الجدل والمناظرة والخلاف التي تمّ توظيفها في ميادين البلاغة، فظهرت مرحلة من المزج بين البلاغتين يمثلها مجموعة من العلماء، تمثّل محاولاتهم محاولات رائدة في استثمار الجهود المبذولة في مجال البلاغة الإقناعيّة، ومن هذه المحاولات محاولة: عبد القاهر الجرجانيّ (ت٤٧١هـ أو ٤٧٤هـ) في مزج بلاغتيّ الشعر والنثر الخطابيّ– البديع من جهة، والبيان والمعاني من جهة أخرى– فاستخلص منهما بلاغة جدليّة جديدة أساسها توظيف المعايير والمعطيات التداوليّة لإثبات تفوّق النصّ القرآنيّ وانسجامه من جهة، والتأكيد على خصائص البلاغة الشعريّة التي تعرّضت للعديد من الانتقادات والإهمال من جهة أخرى.

وللجرجانيّ جهد لا يُنكر في تثبيت البلاغة الإقناعيّة وتطوير مفهومها، إذ تميّز إنتاجه البلاغيّ بخاصيّتين متعارضتين: أولاهما: أنّه إنتاج جداليّ اعترض فيه على مقولات بيانيّة مشهورة لأسلافه من نقّاد البلاغة، وخير دليل على ذلك كثرة المصطلحات الجدليّة في مؤلّفاته، والخاصيّة الثانية أنّه إنتاج تأسيسّ أنشأ مقولات وأدوات في النقد البلاغيّ لم يُسبق إليها، واستحقّ بذلك أن يكون مؤسّس البلاغة العربيّة بحقّ.

ويرى طه عبد الرحمن أنّ أهمّ معالم الإنتاج البلاغيّ عند عبد القاهر الجرجانيّ يتمثّل في مفهوم (الإدعاء)، إذ حاول أن يبيّن المقتضيات والمباديء الإجرائيّة التي يُبنى عليها مفهوم الإدعاء، فعدّدها في ثلاثة مباديء، ولكلّ مبدأ من هذه المباديء مقتضى يصير إليه القول:

- مبدأ ترجيح المطابقة، ويعني احتمال تخريج القول على المعنى الظاهر، فضلاً عن احتماله الدلالة على المعنى المجازيّ.

- مبدأ ترجيح المعنى، ويعني أنّ القول يستند الى بنية استدلاليّة.

- مبدأ ترجيح النظم، ويعني أنّ القول عبارة عن تركيب إخباريّ لا ينحصر في الربط بين مخبر عنه ومخبر به، بل لا بدّ من عنصر ثالث هو ذات المخبر، وبإضافة الجرجانيّ هذا العنصر يكون قد إنتقل بالقول من مجرّد معناه الدلاليّ إلى مرتبة التداول التي تتوخّى مقتضيات مقام الكلام.

ويترتّب على المبدأين الأوّل والثاني مفهوم (المعنى) و(معنى المعنى)، فيكون المعنى: ((**المعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة، وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثمّ يفضي بك إلى معنى آخر ...**))، وهو بهذا التحليل يصحّح للمفهوم المدرسيّ الذي يجعل المعنى الأوّل حقيقة، والمعنى الثاني مجازاً، ويبيّن لهم أنّ الحقيقة – في الواقع– هي المعنى الثاني الذي تجوز فيه فعبّر عنه بالمعنى الأوّل، أي: العبارة أو المادّة اللسانيّة.

فالمعنى في هذه الظواهر البلاغيّة لا يكون مبنيّاً على الوضوح السطحيّ الساذج، بل مداره على البناء والتركيب والقدرة التخييليّة للمبدع، ((**فحتّى الكلام البيّن الواضح قد يُبنى بطريقة فنيّة فيه فيقتضي النظر والتأمل**))، ولا شكّ في أنّ الطابع التأمليّ التحفيزيّ الذي تنطوي عليه هذه الصور البلاغيّة فضلاً عن البعد الفلسفيّ المتعلّق بطبيعة النفس البشريّة ((... **والمركوزة في الطبع أنّ الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه ومعاناة الحنين نحوه كان نيله أحلى وبالميزة أولى**)) تؤدي وظيفة تبدو خطابيّة إقناعيّة خالصة، فإذا كانت ثمّة علاقة بين شيئين، وكانت بعيدة والنصّ لمح إليها بقرائن متعدّدة، كانت بنيتها المفارقة أكثر إمتاعاً وجاذبيّة، وكان لا بد من وضع علامات على طريق المعنى حتّى يهتدي بها (القاريء– المخاطب– السامع).

فـ((**البلاغة قد دخلت مع الجرجاني طوراً جديداً لم تعد فيه القيمة الأدبيّة مرتبطة بنجاعة النصّ وتأثيره المباشر في متقبّله لحسن لفظه ووضوح معناه وقربه من الإفهام، بل أصبحت خصوصيّات في بناء المعاني تُدرك بالعقل والتدبّر**

والمثابرة على التأمّل، لا بوقع الألفاظ في السمع)) ، ومن هنا يعتمد النصّ على كفاءة قارئه وقدرته على فتح النصّ والوقوف على معناه العميق، ومثلما يبدو واضحاً للعيان فإنّ الجرجانيّ كان من أوائل مَنْ لفت الانتباه إلى دور القاريء في قراءة النصّ.

أمّا الأثر الانفعاليّ والجماليّ الذي يثيره النصّ في نفس المتلقّي فقد أرجعه الجرجانيّ إلى توخّي معاني النحو، وإلى الوجوه والفروق التي من شأنها أن تكون فيها، وهو أثر يتفجّر في النفس أولاً؛ ليفيض على الناس نظماً يكون على قدر تسلسل نبعه في نفس المبدع، مفضياً بالدهشة واللذّة في نفس المتلقّي، وبذلك يؤدي النصّ وظيفة تأثيريّة إنفعاليّة وحجاجيّة، ويكون للتركيب بالإضافة إلى أبعاده الفنيّة أبعاد عقليّة وتداوليّة وتأثيريّة، والجهد الذي بذله الجرجانيّ عموماً حاول إظهار البلاغة من وجهة نظر الخطابيّة؛ فكان ذلك سبباً لاعتنائه بالمعنى على حساب اللفظ.

وهذا النوع من البلاغة الخطابيّة المقصديّة التداوليّة- التي طرحها الجرجانيّ – هي ما سيهتم بها السكاكيّ (ت٦٢٦هـ)، إذ تعدّ قراءة السكاكيّ للبلاغة العربيّة قراءة خاصّة ومتميزة في تاريخ الثقافة العربيّة، ويعتبر كتابه (مفتاح العلوم) بمثابة (الأورغانون) بالنسبة للدراسات العربيّة، كما يتميّز بنظرته الشموليّة لكل العلوم العربيّة التي لها صلة بالأدب، وبتصوره المنهجيّ المتماسك، فالسكاكيّ حاول أن يؤسّس نظريّة أدبيّة من خلال الإحاطة بكلّ تلك العلوم وإظهار الروابط التي تنتظمها.

ركّز السكاكيّ في بلاغته التواصليّة على جعل مركز البلاغة هو علم المعاني، وامتدادها في التحوّلات الدلاليّة (علم البيان)، وانتبه إلى الاستدلال واللزوم في البيان، فتمام علم المعاني- عنده- بعلم الحدّ والاستدلال، كما ركّز في مشروعه على المستمع والمقام إذ عليهما مدار علم المعاني والبيان، فالكلام يتحدّد بطبيعة المقام، ولا بدّ من مطابقة الكلام لمقتضى الحال بمراعاة سياقات الخطاب وأحوال المخاطبين وكأنّه يؤسّس بذلك لبلاغة لا يهمّها إلا التواصل الإقناعيّ في الخطاب، يقول السكاكيّ: ((**لا يخفى عليك أنّ مقامات الكلام متفاوتة، فمقام الشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية، وكذا مقام الكلام مع الذكي يغاير مقام الكلام مع الغبي، ولكلّ من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر**)).

ويتجاوز المقام لدى السكاكيّ محيط القول ليصل إلى العلاقات الداخليّة المكوّنة للقول نفسه، فلكلّ كلمة مع صاحبتها مقام، والحال يبني الخطاب، والخطاب يبني بعضه بعضاً، وبهذا الانتباه لا يكون السكاكيّ بعيداً عن جهود التداوليّة في اللسانيّات الحديثة، وهو بربطه للبلاغة بمناسبة المقام والأحوال، وبمراعاة المقاصد يمنحها صفة تداوليّة، ويجعلها في صميم البلاغة الإقناعيّة.

ويدلو حازم القرطاجنيّ (ت٦٨٤هـ) بدلوه في هذا المضمار في محاولته تبيان بلاغة الشعر العربيّ بالاستعانة بالتراثين العربيّ واليونانيّ، فضلاً عن استثمار مجهودات الفلاسفة العرب خاصة ابن سينا (ت ٤٢٨هـ)، بل وعمل على إكمال تلك المجهودات للملاءمة بين التصوّر الأرسطيّ في كتابيّ الشعر والخطابة، وبين خصوصيّة الشعر والخطابة العربيّين، كما أشار إلى منطقة التقاطع بينهما باعتبارهما مكوّنين متداخلين للبلاغة إذ أنّها تشتمل على صناعتيّ الشعر والخطابة، وكأنّ الشعر والخطابة يشتركان في مادة المعاني، ويفترقان بصورتيّ التخييل والإقناع، فعقد قسماً خاصّاً بالمعاني ((**في الإبانة عمّا به تقوم صنعتا الشعر والخطابة من**

التخييل والإقناع والتعريف بأنحاء النظر في كلتا الصنعتين))، وعقد قسما خاصّاً بالأسلوب في ((**مذاهب المراوحة بين المعاني الشعريّة والمعاني الخطابيّة))**، فضلاً عن إشارات متفرّقة عن مقوّمات القول الخطابيّ والقول الشعريّ، ولكن هذا التداخل بينهما لا يفقد كلّ واحد منهما خصوصيّته، يقول حازم: ((**وينبغي أن تكون الأقاويل المقنعة الواقعة في الشعر التابعة لأقاويل مخيّلة مؤكّدة لمعانيها، مناسبة لها فيما قصد بها من الأغراض، وأن تكون المخيّلة هي العمدة، وكذلك الخطابة ينبغي أن تكون الأقاويل المخيّلة الواقعة فيها تابعة لأقاويل مقنعة مناسبة لها مؤكّدة لمعانيها، وأن تكون الأقاويل المقنعة هي العمدة))**، وذكره للخطابة لم يكن إلا لتمييز الشعر وإبراز خصائصه، فصناعة الخطابة تعتمد في أقاويلها على تقوية الظنّ لا على إيقاع اليقين اللهم إلا أن يعدل الخطيب بأقاويله عن الإقناع إلى التصديق، أمّا الأقاويل الشعريّة فتعتمد على تخييل الأشياء وإقامة صورها في الذهن بحسن المحاكاة.

لقد جعل حازم القرطاجنيّ الإقناع خصيصة للخطابة، والتخييل خصيصة للشعر ولكنّه مع ذلك لم يمانع من وقوع شيء من الإقناع في الشعر، أو شيء من التخييل في الخطابة، وهو بذلك يقرّ بالتداخل بين الخطابيّ والشعريّ، وبين الأقاويل الخطابيّة والأقاويل الشعريّة، ومن ثم فهو قد جعل البلاغة تشتمل على صناعتيّ الشعر والخطابة لاشتراكهما في مادة المعاني التي هي –عنده– منطقة مركزيّة للتقاطع بين الشعريّ والخطابيّ، وعدّ مركز المركز في هذا التقاطع هو التأثير في النفوس ودفعها نحو الاعتقاد والفعل، وافتراقهما في تصوّر التخييل والإقناع، وأنّ المراوحة بين المعاني المقنّنة والمعاني المخيّلة أكثر تأثيراً في النفوس، وتجديداً للنشاط، وتحصيلاً للغرض من الكلام([٢])، فالقرطاجنيّ وإن كان قد ركّز على الجانب التخييلي الشعريّ ولكنّه أسّس لعلاقة تكامليّة مع الجانب الخطابيّ، فمن خلال هذا التداخل يشترك العقل مع العاطفة في إحداث التأثير.

وتوقفت بعد ذلك المحاولات الإفهاميّة لتذوب البلاغة في وظيفتها الإمتاعيّة، وعلى الرغم من ذلك فإنّ ما نلاحظه في هذه المحاولات لتوظيف الخطابة والإقناع في البلاغة أنّ الحجاج الذي ورد في البلاغة العربيّة– من خلال هذه المحاولات– كان متناسباً مع الواقع الذي نشأ فيه، وهو كفيل بعدّ البلاغة العربيّة بلاغة خطابيّة إقناعيّة، ولكنّه في الوقت نفسه لا يمكن أن يرتقي إلى مستوى النظريّات الحجاجيّة المعاصرة، فـ((... **الحجاج اليوم يريد أن يقنع بأهميّته، لا من جهة أنّه منهج لدراسة نصوص الخلافيّات والمناظرات، فهذه مواطن مهيأة لتنتج هذه المخاطبات، وإنّما من جهة أنّه يوجد الحجاج في صلب اللغة، وفي العادي من الكلام ممّا يدور بين الناس في مبادلاتهم اليوميّة))**.

ومع تقدّم الزمن أصبحت البلاغة صناعة للزينة والتباهي والزخرفة اللفظيّة، وعلى هذه المفارقة ستعيش البلاغة العربيّة طيلة تأريخها اللاحق باعتبارها احتفاء بالشكل وتغييباً له في الوقت نفسه، اهتماماً بالصياغة واللغة، وحرصاً شديداً على وضوح المعنى، وتمّ اختزال البلاغة لاحقاً ولفترة طويلة في باب العبارة والأسلوب، ولم يتمّ توسيع المحاولات التي تناولت الحجّة والبرهان أو تحليلها منذ الجاحظ وحتّى الجرجاني، ولكن ما يميز هذه البلاغة هو ظهور تصوّر واضح لبلاغة الشعر وآخر لبلاغة الحجاج؛ لأنّ البلاغة العربيّة في عصر التدوين كانت تستجيب لحاجات معيّنة نجمت عن سياقات فكريّة ومذهبيّة واجتماعية بالغة الخصوصيّة.

– نقاط الإتفاق والافتراق بين البلاغتين: الغربيّة والعربيّة:

لم تكن مسارات وظيفة الإقناع في البلاغتين: الغربيّة والعربيّة متوافقة تماماً أو متطابقة كليّاً عبر عصورها المختلفة، بل كانت هنالك وقفات متباينة بينهما إلى جانب التوافقات العرضيّة، وقد تساهل الدارسون المعاصرون –من العرب– كثيراً في محاولتهم نقل تجربة البلاغة الإقناعيّة في الدراسات الغربيّة المعاصرة، وتسامحوا مع عمليّة النقل التامّ للتجربة بوصفها جزءاً من التطوير والتغيير لمسار البلاغة العربيّة، على اعتبار أنّ علم البلاغة علم مرن قابل للمطاوعة والتأثّر، ولكنّهم في كثير من الأحيان كانوا يدركون وجود الافتراق إلى جانب التوافق ظاهراً أو ضمناً، وسنحاول هنا أن نقف عند نقاط الإتفاق والافتراق بين البلاغتين اعتماداً على ما استعرضناه في مسارات الإقناع – سابقاً– مركّزين على محاور مهمّة ومحدّدة لكلّ منهما، من أمثلة: ظروف النشأة والمهاد، والهدف المتوخّى من كلّ منهما ومجال التأثير، والمكوّنات البنائيّة التي تعتمد عليها البلاغتان، والآليّات المتّبعة في الإقناع فيهما، ومفاهيم المصطلحات التي تندرج تحتهما، منبّهين إلى أنّ بعض هذه المحاور قد يتّسع وبعضها قد يضيق، وقد يتداخل بعضها في الآخر اعتماداً على طبيعة المادّة العلميّة المعروضة.

أوّلاً– ظروف النشأة والمهاد:

– تختلف البلاغة العربيّة عن نظيرتها الغربيّة في ظروف نشأتها من حيث إنّ البلاغة الغربيّة نشأت مرتبطة بالخطابة، في إطار فلسفيّ منطقيّ، تبحث عن حقيقة الوجود، وقيم الإنسان والفضيلة، وسلطة القول وقوّته لتحقيق الإقناع، في حين أنّ البلاغة العربيّة ظهرت تباشيرها في أحضان الشعر، والمفاضلة بين الشعراء، فكانت مرتبطة بشكل وثيق بتصوير المعاني وإخراجها بأجمل صورة وأحسنها، وربّما يكون البلاغيّون القدماء قد حاولوا أن يبعدوا الخطابة عن ميادين علم البلاغة لما تشيعه الخطابة – في بعض الأحيان– من إحساس بالزيف والتمويه على المتلقّي، والابتعاد به عن الحقّ– مثلما نادى أفلاطون– وهذا الأمر استشعره العرب أيضاً فابتعدوا عن الخطابة لئلا يقترن وجودها في علم البلاغة بالقرآن الكريم المنزّه عن الباطل –كونها خادمة له– فحاولوا الابتعاد عن ربطها به.

– البلاغة الغربيّة كانت وليدة بيئتها وثقافتها الإجتماعية والسياسيّة والاقتصاديّة والدينيّة، ولم تتأثّر بثقافات خارج الإطار الغربيّ والبيئي الذي احتضنها، أمّا البلاغة العربيّة فتبدو إفادتها من الثقافات الخارجيّة ولا سيّما البلاغة اليونانيّة واضحة للعيان، وبالذات في مؤلفات أرسطو إذ تمّت الإفادة منها وتمثّلها في بعض الكتابات القديمة من أمثلة كتاب (نقد الشعر) لقدامة بن جعفر، و(البرهان في وجوه البيان) لابن وهب، و(منهاج البلغاء وسراج الأدباء) لحازم القرطاجنّي، وقد انسحب هذا الأمر أيضاً إلى وقتنا المعاصر فبدا واضحاً مقدار التأثّر بالدراسات الغربيّة المعاصرة من خلال الترجمة أو الشرح والتحليل لهذه الدراسات.

– شهدت الدراسات الحجاجيّة الغربيّة تطوّراً وتغييراً متواصلاً على الصعيدين: القديم والحديث بسبب الأجواء الديمقراطيّة التي احتضنتها وانتجتها، في المجالس الاستشاريّة وفي المحاكم وفي الاحتفالات، وبمباركة الجميع، في حين أنّ البلاغة العربيّة لا تزال الأجواء الديمقراطيّة فيها غير حاضرة وغير متحقّقة، لا بل إنّها في حكم النادرة، علماً بأنّ أسلوب الحوار والمناقشة لا يخلو من أثر في ترسيخ قيم الإقناع، واحترام الاختلاف، وهذا الأمر لم يتحقّق في البلاغة العربيّة التي نشأت في أحضان سلطة السيف والقوّة وعدم وجود

رأي آخر يمكن أن يصدح عالياً فوق رأي السلطة، فمن الطبيعي ألا يُسمح لهذا الخطاب القائم على الحوار والمناقشة بالنموّ والتطوّر لأنّه يشكّل خطراً على منظومة السلطة السائدة.

ثانياً: الهدف المتوخّى ومجال التأثير:

- تتّفق البلاغة الإقناعيّة الغربيّة مع البلاغة العربيّة القديمة على مدى فترة تطورهما الزمنيّ في أنّ كليهما وضعتا لتقوما بوظائف أهمّها: التواصل والإقناع والإمتاع، ولتحقيق هذه الوظائف والغايات التي لا تخفى علاقتها بالحجاج لا بد من توافر شروط ثلاث: مخاطَب، ومخاطِب، ومقتضيات أحوال، فالبلاغة في كليهما هي وسيلة للتأثير في المستمعين واستمالتهم واقناعهم بالرأي، ولكن على الرغم من هذا الاتفاق فإنّ هذه الوظائف مجتمعة تحقّقت في الثقافة الغربيّة من خلال إثبات وظيفة الإقناع للبلاغة عبر شروطها الحجاجيّة، في حين أنّ البلاغة العربيّة لم توظّف هذه الأمور سويّة فقد يظهر بعضها وقد يختفي الآخر بحسب الظروف البيئيّة، فضلاً عن أنّ الشروط الحجاجيّة التي قد يظهر الإقناع من خلالها لم تتحقّق كليّاً فيها.

- تتفق البلاغتان في أنّهما تضمنتا الاهتمام بالبلاغة الحجاجيّة الإقناعيّة في فترة الخلافات الكلاميّة حيث يكون التسلّح بالوسائل الحجاجيّة البلاغيّة اللغويّة أمراً مهمّاً للدفاع عن حقوق الملكيّة – في البلاغة الغربيّة– من جهة، والوقوف ضد مزاعم وقوع الشبهات في القرآن الكريم وتنزيهه –في البلاغة العربيّة– من جهة أخرى، فظهرت الحاجة الماسّة إلى الاستعانة بالآليّات اللغويّة والبلاغيّة والسياقيّة المقاميّة للإفادة منها في ترجيح رأي على رأي أو غلبة قضيّة على أخرى، فالدفاع عن الآراء الاعتقاديّة كان هدفاً من أهداف البلاغتين ضمن فترات زمنيّة من تأريخهما مع إختلاف مفهوم هذه الآراء بين الثقافتين.

- المجال الذي تسعى البلاغة إلى التأثير فيه – أي الجمهور– يختلف بحسب الحضارة التي تنتمي إليها البلاغة، ففي الحضارة اليونانيّة كان المتلقّي هو القاضي الذي يحكم بأحقيّة المتكلّم ومطالبته بحقّه في الخطابة (القضائيّة)، وهو يختلف عن جمهور الناس في الخطابة (الاحتفاليّة) ، وكذا يختلف عن الجمهور الخاصّ في البلاغة العربيّة أو المتلقّي الخاصّ الذي يفقه أساليب البلاغة والبيان ويعرف مجاري استعمال اللغة عند العرب الفصحاء، وفي العصر الحديث فإنّ مجال تأثير البلاغة انسحب إلى الجمهور العالميّ بسبب انتشار ثقافة الإعلام والإشهار، وتزايد الاهتمام بالبلاغة الإقناعيّة – عبر الزمن – يأتي من أنّ الإنسان بطبيعة الحال لا يبقى محافظاً على معتقداته وآرائه وإنّما يتغيّر مع تغيّر الظروف المحيطة، وهذا التغيّر هو جزء من الحياة الفكريّة للإنسان التي ينبغي استثمارها وتوجيهها لخدمة قضايا الفكر.

ثالثاً: المكوّنات البنائيّة:

- البلاغة الغربيّة فصلت الخطابة عن الشعر ممثّلة في كتابات أرسطو وإلحاحه على بيان الفرق بينهما من جهة الوظيفة والمقصد، ومن جهة الوسائل الموصلة إلى تلك الغايات والمقاصد، وتبعه الفلاسفة العرب، بينما قامت البلاغة العربيّة على دمج المسلكين الخطابيّ والشعريّ عند مَنْ تنبّه إلى ذلك من العلماء، فالمسلك الخطابيّ لم يكن يشكّل نقطة ارتكاز في المؤلّفات التأسيسيّة لعلم البلاغة؛ ولذلك لم يلق الاهتمام الكافي، وهذا الأمر انسحب على البحوث الإعجازيّة أيضاً إذ تمّ التعامل مع نصوص القرآن على

أنّها نصوص أدبيّة متفرّدة، لا بل استدلّوا على إعجازه بالنصوص الشعريّة، ولم يولوا الأهمية للحجج والأدلّة التي تضمّنها النصّ القرآنيّ.

– الثقافة التي تمتّع بها رائدو البلاغة الإقناعيّة من الطرفين (الغربيّ، والعربيّ) كانت موسوعيّة، إذ تمتّعوا بثقافة لغويّة وكلاميّة أهّلتهم للتصرّف في فنون القول، مثل سقراط وأفلاطون وأرسطو، والجاحظ وابن وهب والجرجانيّ والسكاكيّ والقرطاجنّي، إذ كانوا رجال مناظرة وقول، ملمّين بجوانب اللغة والثقافات، وهذا الأمر انعكس على كتاباتهم، فكان أمراً طبيعيّاً أن يعزّزوا كتاباتهم بالأدلّة والبراهين التي يستطيعوا من خلالها مقارعة الخصم وغلبته، وجذب النفوس والأذواق إليهم.

– البلاغة العربيّة لم تنشغل أوّل أمرها بالاهتمام بالمخاطب لا بل إنّه لم يكن موجوداً أساساً، ولكن جرى الاهتمام به لاحقاً عبر الكتابات التراثيّة التي ظهرت ضمن مسارات الإقناع، ممّا شكّل عاملاً قويّاً في تغيير طبيعة البلاغة وظهور ما يسمّى بالبلاغة الإقناعيّة القائمة على استعمال الآليّات، وتتحدّد مهمّتها في إقناع المخاطب والتأثير فيه.

– لم تعتمد البلاغة مقياس الحقيقة أساساً لها، فهي تنبني على مفهوم الاحتمالات والتعدّد لا العلم واليقين؛ ولذلك فما يراه المتكلّم صحيحاً وهو مؤمن به هو الذي يشكّل حقيقة الكلام حتّى وإن خالف رأي المتلقين؛ ولهذا فهو يسعى إلى تغيير معتقداتهم وآرائهم من خلال التأثير فيهم.

رابعاً: الآليّات المتّبعة:

– انفرد كلّ واحد من أقطاب البلاغة الإقناعيّة القدماء بوضع نظريّة خاصّة به قامت على استقصاء ما ورد عند سابقيهم، فالفلاسفة انتقدوا السوفسطائيّين، وأرسطو وضع نظريّة خاصّة به، والمشروع الحجاجيّ الاقناعي للجاحظ اعتمد فيه المقام، وابن وهب اعتمد الحجّة، والسكاكيّ اعتمد الاستدلال وهكذا، وهؤلاء جميعاً حاولوا بشكل أو بآخر تصحيح ما ورد عند سابقيهم أو نقده أو التوسّع فيه، فأسهموا في تطوير مفهوم البلاغة الإقناعيّة من جهة وبما يتناسب مع الظروف الإجتماعيّة والسياسيّة والثقافيّة السائدة في عصرهم من جهة أخرى.

– البلاغة العربيّة اعتمدت آليّة التقسيم الثلاثي القائم على: علم المعاني، وعلم البيان، وعلم البديع، ولا زالت كذلك، فعلم المعاني هو وسيلة المتكلّم لتجنّب الوقوع في الخطأ، وعلم البيان هو وسيلته لتجنّب أوجه الغرابة والتعقيد في الكلام، وعلم البديع هو وسيلته لتحسين الكلام وإضفاء جماليّة التعبير عليه. وهذه الوسائل من خلال موضوعات كلّ علم من العلوم الثلاث هي المتّبعة عند القدماء من العرب والمعاصرين أيضا للوصول إلى التأثير في السامع من خلال وصول المعنى إلى قلبه، فضلاً عن آليّات اعتمدوها للتأثير في جمهورهم الخاصّ، مثل: الصور البلاغيّة والحجج، والشاهد، والمثل، والقياس، والاستدلال، المقام، وهي لا تجتمع غالباً وإنّما قد تأتي متفاوتة، ولكن هذه الآليّات م تكن شموليّة لتتساوى مع ما ورد في الدراسات الحديثة، فالمعاصرين من الغربيين كانت لهم آليّاتهم الخاصّة بهم ونظريّاتهم اللغويّة، والتي تختلف عن آليّات القدماء، فبيرلمان– مثلاً– الذي عدّ البلاغة فنّاً للتعبير يرى أنّ البلاغة تمثل إجراءً تضاف إليه الحجّة لتشكيل الخطاب البلاغيّ المقنع، ومايير يرى أنّ كلّ شيء أضحى تواصلاً وكلّ خطاب هو تواصل،

والبلاغة لا يمكن أن تنجح إلا إذا قامت على التواصل، وهكذا فالبلاغة قد تحقّق التأثير والاستمالة ولكنّها لن تصل إلى الإقناع إلا بمعيّة الحجج الساندة لها ومن خلال آليّات خاصّة بنظريّاتهم التي وضعوها.

– إنّ الاسلوب الذي كان جزءاً من بلاغة الخطاب عند اليونان يمثّل الصدارة في البلاغة العربيّة التي لم تميّز بين الشعر والنثر إلا في بعض الجوانب، مثل عدم التزام الوزن أو التطرّق إلى موضوعات من دون أخرى، ولكن من حيث المعالجة النقديّة فقد اشترك الشعر والنثر في الكثير من جوانب المعالجة عند العرب، بينما تعدّ الصور البلاغيّة والأساليب من وجهة نظر الدارسين المعاصرين من الغرب هي تقنيّات بلاغيّة تستدعيها جماليّة الإيصال والتلقّي فهي تقنيّات ساندة للإقناع وليس لها الصدارة في البلاغة، وهي تحقّق الإقناع مقترنة بالأدلّة والحجج لتزيل الإنكار أو الشكّ الذي قد يعرض في ذهن المتلقّي.

– تتبّع النظريّات الإقناعيّة جميعاً وعلى وفق ما ذكره الدارسون المعاصرون من الغرب للإفادة منها جملة من الآليّات، والإفادة منها جميعاً وبحسب تتابع آليّاتها وتطبيقها على البلاغة العربيّة التراثية أمر غير ممكن في الواقع وذلك بسبب تداخل العديد من العلوم في هذه النظريّات، فضلاً عن اختلاف الأسس التي اعتمدتها، فما بين التداوليّة واللسانيّة والبلاغيّة والأسلوبيّة والسيميوطيقيّة، والفلسفيّة، والمنطقيّة تتراوح هذه النظريّات؛ لذا تتراوح مهمّة الدارس وتتحدّد بانتقاء الآليّات الملائمة لنصّه الذي يدرسه، أو باختيار نظرية واحدة للتطبيق فقط.

– هناك عناصر مكوّنه للبلاغة لا يختصّ بها الغرب من دون العرب، ولا القديم من دون الحديث، وإنّما الاختلاف واقع في العنصر المهيمن فيها، فعند اليونان كان المنطق هو العنصر المهيمن، فكان الاهتمام بالحجّة إلى جانب العلاقات الديمقراطيّة هو السائد، بينما نجد الشعر هو المهيمن عند العرب فأصبح الاسلوب والعبارة هما السائدان ولهما الصدارة في الكلام، فاختلاف الموضوعات والمخاطبين هو الذي يقتضي تقديم وسيلة وتأخير أخرى .

خامساً: مفاهيم المصطلحات المندرجة تحتهما:

– مصطلح (البلاغة الجديدة) يحمل في عمقه هاجس إعادة قراءة التراث البلاغيّ اليونانيّ والرومانيّ وما تلاهما من تراكمات في هذا المجال، فالمصطلح دلّ على محاولة تطوير بلاغة أرسطو، أمّا الدراسات العربية المعاصرة فلم تأتِ بجديد يتجاوز مفهوم البلاغة الجديدة السابق سوى بالشرح والتوضيح للكتب المترجمة التي بحثت في الحجاج والإقناع، ومحاولة تطبيق ما ورد فيها على نماذج من التراث العربيّ.

– من المصطلحات التي اضطرب مفهومها بين الأصل الذي نقلت منه وبين علم البلاغة العربيّة مفهوم: مراعاة المقام والحال فهو في نظريّة أرسطو يمثّل عنواناً للعلاقة بين الخطيب والمستمع من الناحية النفسيّة والأخلاقيّة، فخطابة أرسطو فيها فرع من الجدل، وفرع من علم الأخلاق، وتصنيفه للخطابة كان قائماً على أساس أحوال المخاطب الذي يعدّه الحكم على نجاعة الكلام الذي يلقيه المخاطب من عدمه، في حين أنّ العرب لم يهتمّوا بهذه الأمور فحاولوا أن يدرجوا تحت عنوان المقام والحال ملاحظات كثيرة فيما ينبغي للخطيب أن يكون عليه أو يراعيه من أحوال المستمعين، وهنا لا يظهر للمستمع شخصيّة واضحة لأنّه غائب عن الكلام في

حين أنّه يكون واضحاً وله دوره الايجابيّ في البلاغة الغربيّة القديمة والمعاصرة أيضاً، وكذا الموقف من مصطلحيّ (التصوّر والتصديق) في الكلام فهما متباينان بينهما.

– مبدأ الوضوح والوصول إلى أذهان المستمعين الذي أقرّه أرسطو وتابعه فيما بعد المعاصرين من الدارسين الغربيّين يضع الصناعة الصوتيّة في منزلة وسط بين النظم المطّرد والوزن والنثر المرسل؛ لذا ينبغي أن يكون الكلام إيقاعيّاً غير مطّرد الوزن؛ ولذلك يفضّل أرسطو العبارة المقسّمة المتقابلة على العبارة المسترسلة، أي يفضّل العبارة الي يدرك الطرق نهايتها، بينما رفض البلاغيّون العرب إطّراد السجع والجناس وغيرهما من المحسّنات اللفظيّة لما يتمّ عن ذلك من تكلّف يعوق الوظيفة الإبلاغيّة للخطاب، فظهور التكلّف مناف لعمليّة الإقناع، فضلاً عن الداعي الدينيّ في رفض وقوع الإيقاع في الخطاب النثريّ.

– مصطلح (المواضع) في البلاغة الغربيّة يربط بعض الظواهر البلاغيّة بالمكان، فالذاكرة لها أهمية في رفد الخطابة بقيم إقناعيّة، من أمثلة (الاستعارة المكنيّة) التي تأتي أهميتها من خلال ارتباطها بالمكان، فحسب قول أرسطو: يكفي لتتذكّر الأشياء أن تتعرّف المواضع التي توجد فيه، فالموضع هو عنصر مهمّ لتداعي الأفكار، وهو وسيلة تذكّر مهمّة– عنده– فهي ليست بحجّة وإنما هي بمثابة الحجرات التي تحلّ فيها الحجج، وهذا المصطلح ليس له مقابل في البلاغة العربيّة، فضلاً عن أنّ الاستعارة المكنيّة في البلاغة العربيّة ترتبط بأطراف التشبيه وحذف المشبّه به من عمليّة التشبيه ولا علاقة لها بالمكان وارتباطاته.

– تعرّضت البلاغة العربيّة في خضمّ التحديّات المعاصرة التي انتجتها عمليّات الترجمة للدراسات اللغويّة من اللغات الغربيّة والإفادة من النظريّات التي طُرحت في ميادين هذه اللغات ومن ثمّ تطبيقها على البلاغة العربيّة في بعض الأحيان إلى نوع من عدم الدّقة في المفاهيم بسبب الترجمة، فقد اجتهد الباحثون في ترجمة العديد من المصطلحات التي درجت في ميدان (البلاغة الحجاجيّة)، وكان لاختلاف الترجمة فيما بينهم أثره في إرباك البحث الحجاجيّ الإقناعيّ في البلاغة العربيّة، مثال ذلك الاجتهاد في ترجمة (metaphor/mtaphore)(mtonymie/metonymy) الغربيّين إلى (الإستعارة) و(المجاز المرسل) إلى العربيّة، وما هما بذلك، إذ يقع المصطلحان في ازدواجيّة التقاطع والتداخل المفهوميّ بين (التشبيه البليغ) و(الإستعارة) من ناحية وبين (المجاز مرسل) و(الكناية) من ناحية أخرى، فالمفاهيم لا تتناسب إلا جزئيّاً في كلّ مرّة، فتعدّد المقابلات العربيّة يوقعهم في الإشكال في تحديد المفهوم، فلا وجود لكلمتين في لغتين يمكن أن تتطابقا تطابقاً تامّاً، وهذه أحّد أهمّ مشكلات الترجمة من لغات متعدّدة.

هذه أهمّ نقاط التباين والتوافق بين البلاغتين: الغربيّة والعربيّة وهي بحاجة إلى بحث دقيق من الدارسين لاستقصاء كلّ جوانبها، ولكن الغرض من هذا الاستعراض هو الوصول إلى نتيجة محدّدة وهي أنّ البلاغتين لا تتوافقان في النشأة والتجربة ومجال التطبيق فكيف يمكننا إجراء التطوير والتغير بتطبيق تجربة إحداهما على الأخرى حرفيّاً.

– الآليّات المقترحة لتجديد البحث في مجال البلاغة الإقناعيّة:

إنّ الإكتفاء بنقل تجارب الآخرين ومحاولة التطبيق على نماذج من تراثنا اللغويّ لن يسهم في تحديث العلوم اللغويّة بقدر ما تسهم المحاولات الجادّة بإعطاء البلاغة العربيّة خصوصيّتها ومن ثمّ الإنطلاق بالإستحداث لمباحثها والمعاصرة بما يتلاءم مع تطوّرات المجتمع الثقافي والفكريّ الحالي ومع توافر الحاجة الماسّة للتطوير، وربّما لم يفعل الدارسون ذلك ذلك لعدم استشعارهم بأهمية الأمر، فما

الذي سنستفيده فيما لو تطوّرت البلاغة وأصبحت مواكبة لبلاغة الغرب ؟ هل سيتمّ توظيف هذا التطوّر في خدمة واقعنا من كلّ جوانبه ؟ وهل سيتمّ توظيف الأمر في الجوانب النقديّة المعتمدة على البلاغة ؟، وبلاغتنا التي عرفناها وألفناه هي بلاغة القول الجميل والبليغ الذي يسعى إلى التأثير، فهي ليست ببلاغة حوار حتّى يمكن تبيان الأثر الذي تحدثه، وليست ببلاغة ردّ فعل حتّى نستبين المدى المتحقّق من هذا التأثير، وهذا الأمر يدخل في صلب الأسس التي تعتمد عليها البلاغة العربيّة في قواعدها التأسيسيّة، ولنا أن نستذكر حرص العرب القدماء في المحافظة على تراثهم اللغويّ من خلال وضعهم الميزان الصرفيّ وعرض ما يدخل إلى العربيّة من ألفاظ أعجميّة عليه ليتمّ تعريبه لاحقاً وبما يتلاءم مع قواعد اللغة العربيّة، فإذا كان القدماء قد انتفضوا لأجل ألفاظ متباينة قد تدخل على فترات زمانيّة متفاوتة فما حالهم لو نظروا الآن إلى عمليّات التغريب التي يتمّ فرضها على البلاغة العربيّة باسم التطوير والتغيير، ونحن في حقيقة الأمر لسنا ضدّ الإفادة من تجارب الآخرين، ولكنّنا ضدّ أن يُمحى تراثنا بحجّة التطوير، وربّما جاءت محاولات القدماء من البلاغيّين في عدم تبنّي بعض مفاهيم البلاغة الإقناعيّة منطلقة من هذه النقطة، فالتأثر بالثقافة اليونانيّة لم يكن مرغوباً به إن كان تطابقاً ولذا لم تستمرّ تلك التجارب المتناثرة عبر المدى التأريخيّ لعلم البلاغة ولم يتمّ تطويرها، ولعلّ البعض رفضها وعرّضها للنقد؛ وربّما لهذا لم تأخذ تلك المحاولات مداها الذي كنّا نطالب به ونتوقّعه.

وقضيّة إيجاد آليّات محدّدة ممكن اعتمادها لتطوير البلاغة أمر ليس بالهيّن فالقضيّة قد لا تخرج عن حيّز التنظير فيما لو لم تُعر إهتماماً كافيّاً، ولنا أن نقترح مجموعة من الآليّات التي يمكن أن توجّه مسار البحث في مجال البلاغة الإقناعيّة، محاولين إلقاء الضوء على خيارات لم تطرح أو يتمّ تطبيقها فعليّاً، ومن هذه الآليّات:

– **أوّلاً**: العودة إلى التراث ومن ثمّ الانطلاق إلى المعاصرة؛ وذلك من خلال الوقوف على الهدف الذي نشأت من أجله البلاغة العربيّة التراثيّة من خدمة القرآن الكريم والبحث عن إعجازه، وبذلك تكون الحاجة ماسّة للعودة بمقوّمات البلاغة الإقناعيّة إلى القرآن لإثبات ما يتوافق مع هذا النصّ المقدّس، وإبعاد ما يتخالف معه للوصول إلى قواعد وأسس لبلاغة إقناعيّة تترادف مع أسس البلاغة العربيّة وتعتمد عليها، وتشتمل على إضاءات جديدة لمناطق لم يسلّط الضوء عليها سابقاً، ومسارات جديدة كانت خافية عن الأنظار يمكن توظيفها لتجديد البلاغة التراثيّة، وليس القصد هنا – مثلما فعل بعض الدارسين– اعتماد آليّات البلاغة الغربيّة المعاصرة وإعادة تدوير تطبيقها على نصوص من القرآن الكريم، وإنّما القصد البحث من جديد في النص القرآنيّ لاستلهام بلاغة إقناعيّة خاصّة به، موظّفة لخدمته كي نستطيع لاحقاً تطبيقها على نصوص نثريّة وشعريّة أخرى من التراث العربيّ، فنكون بذلك قد تابعنا الآليّة نفسها التي اعتمدها القدماء للوصول إلى قوانين البلاغة التراثيّة وقواعدها.

– **ثانياً**: إعادة قراءة التراث البلاغيّ قراءة جديدة تحاول أن تستكشف المنظومة القواعديّة التي قامت عليها البلاغة، ويمكن أن يسعفنا في هذا المضمار بعض دراسات المعاصرين في محاولة تفسير الآليّات المعتمدة في تحليلات البلاغيين القدماء، هذه القراءة تعتمد بيان نقاط التميّز للبلاغة العربيّة قياساً إلى معاصرتها الغربيّة، ومحاولة الكشف عن توجّهات جديدة تسير في ظلّ الدراسات المعاصرة ولكنّها – بطبيعة الحال– تنفصل طبيعيّاً عن البلاغة التراثيّة، فالبلاغة الإقناعيّة لم تنحصر بعلم البلاغة فقط وإنّما تداخل معها علوم مختلفة، مثل: المنطق، والفلسفة، والنحو، والصوت، واللغة، علم اللسانيّات الحديث، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، والإعلام، والإشهار، والسياسة والإقتصاد وغيرها، وهذا العلوم قد لا تستقلّ بها البلاغة وحدها، أو قد لا يكون لها مدخليّة في علم

البلاغة في أحيان كثيرة؛ ولذا توجّب توظيف هذه العلوم جميعاً ومحاولة تشكيل علم عربيّ جديد يضمّ كلّ هذه المقوّمات ويفيد من الأسس البلاغيّة التراثيّة إلى جانب الأسس اللغويّة الأخرى بدلاً من محاولة التطبيق على التراث وتوجيهه غير الوجهة التي وضعها القدماء له.

– **ثالثاً**: الإفادة من تجارب المعاصرين الغربيّين في مناهج الدراسة وليس في مجال التطبيق حتّى لا نكون تابعين نجترّ ما ينتجونه فقط، فالمناهج الحداثيّة المعتمدة في الدراسات الغربيّة من الممكن أن تفتح آفاقاً جديدة للدارسين يستطيعوا من خلالها إلقاء الضوء على الأماكن التي تحتاج إلى إضاءة جديدة فيتمّ توظيف المنهجيّات المتوافقة مع خصوصيّة اللغة لا العكس، وقد نكتفي بادخال تجارب الغرب ضمن باب الجهود المترجمة من دون تعميمها على التطبيق، فنسلم بذلك من إشكالات اضطراب المفاهيم بين الحضارتين.